

الرحلة إلى مكة دراسة في فكر الجغرافيين العرب

تأليف

المرحوم الراحل

أ.د. / محمد سالم مقلد



الرحلة إلى مكة. دراسة في فكر الجغرافيين العرب

* د / محمد سالم إبراهيم سالم مقلد

تقديم :

مثلت مكة وتمثل قبلة الإسلام والمسلمين في كافة أنحاء العالم ، ومثلت وتمثل الرحلة إليها مقصداً وركناً من أركان الإسلام وتهوى إلى بيت الله الحرام أفئدة المسلمين في كل زمان ومكان .

وقد كان لانتشار الإسلام الفضل في ازدهار الفكر الجغرافي بصفة عامة وازدهار الرحلة وأدبها بصفة خاصة ، خاصة الرحلة إلى مكة ، فهي مطلب كل المسلمين . فقد تولى الإسلام بالضرورة إثارة واستنفار الحاسة الجغرافية في المسلمين ، وهم يواجهون التحدي من قبل كفار الجزيرة العربية وخارجها ، أو وهم يجوبون الأرض في أنحاء الدولة الإسلامية ، أو وهم ينشرون الدعوة إلى الله على الصعيد العالمي ، فيما وراء الأرض الإسلامية ، وكان المطلوب من إثارة أو استنفار الحاسة الجغرافية ، أن يجنى المسلمون ثمرات نافعة ، من خلال الانفتاح على الأرض وعلى الناس في كل مكان ، وكان المطلوب أيضاً أن تظهر الصفوة الممتازة من بين صفوف الرحالة والجغرافيين المسلمين ، وان تنكب هذه الصفوة على إحياء الفكر الجغرافي "الذي توقفت إبداعاته بعد اليونانيين" وأن تتولى الإضافة إليه وإثرائه بكل جديد ومبتكر لحساب الإنسان (١) .

وقد هدفت الدراسة إلى إبراز الرحلة إلى مكة المكرمة وأهميتها وإظهار مدى ثراء الفكر الجغرافي لدى الرحالين العرب خاصة تجاه مكة المكرمة .

وقد ركزت الدراسة في عدة نقاط مهمة ، ساهمت في توضيح أهداف البحث وهي : إيضاح أثر الامتداد الإسلامي في قارات العالم القديم على رواج الفكر الجغرافي بصفة عامة ، كذلك إظهار أهم العوامل التي جعلت مكة في بؤرة الفكر عند الرحالين العرب والمسلمين على وجه الخصوص وجملة الرحالين على وجه العموم ، ثم إيضاح أهم الطرق التي توصل إلى مكة من الأرجاء المختلفة كالطريق العراقي ، والطريق المصري ، والطريق اليمني ، والطريق الشامي ، بالإضافة إلى الطرق الأخرى المائية والبرية الموصلة بين مكة وأرجاء العالم القديم ، وكان من المهم لاكتمال الفكرة وتجميلها أن يشار في إيضاح على النظرة

* أستاذ الجغرافيا البشرية المشارك ، كلية التربية ، جامعة المنصورة .

الجغرافية لمكة المكرمة فى رحلة ابن جبير كنموذج للرحلة إلى مكة ؛ إذ أنه على الرغم من أن ابن جبير قد قصد مكة من بلاد الأندلس ، إلا أنه أكثر الرحالين إقامة فى مكة ، وقد أمعن فيها النظر والملاحظة ، بل ومن أكثر الرحالين كتابة عنها فى دقة ووضوح .

أثر إمتداد العالم الإسلامى فى رواج الفكر الجغرافى :

انفتح العالم الإسلامى فأصبح صفحة فسيحة الأرجاء ، حتى أصبح يمتد نحو ١٤٠ خطا طوليا ، ابتداء من خط طول ١٢٠ شرق خط جرينتش ، والواقع شرقى إندونيسيا ، حتى خط طول ١٨ غرب خط جرينتش حيث مصب نهر السنغال فى المحيط الأطلسى ، وهو يعد أقصى امتداد العالم الإسلامى فى الإتجاه الغربى ، كما يمتد هذا العالم بين نحو ٧٠ درجة عرضية : بداية من أعالي نهر الفولجا عند درجة عرض ٦٠ شمال خط الاستواء حتى درجة عرض ٦ جنوب خط الاستواء حيث جزيرة زنجبار - أو بر الزنج كما كان يسميه العرب - على الساحل الإفريقى الشرقى حيث المحيط الهندى .

وعليه فتلك مساحة هائلة ، أكبر مثلاً من مساحة كل القارة الإفريقية ، بل وأكبر من قارتى أوروبا وأمريكا الجنوبية مجتمعتين ، فهى تبلغ نحو اثنى عشر مليوناً من الأميال المربعة ، ولعلها تصل إلى نحو أربعة عشر مليوناً إذا أضفنا إليها المساحة التى تشغلها الأقليات المسلمة فى الدول غير المسلمة (٢) .

ومع هذا الاتساع الهائل كان من الضرورى أن ينمو الفكر الجغرافى ويزدهر ، فبدأ الفكر الجغرافى الإسلامى كعلم متلازماً مع التاريخ ، إذ كانا فى نظر العرب فرعان متلازمان من شجرة المعارف العامة التى كانت تسمى "الأدب" بصورة عامة ، فكما كان من الضرورة للعربى أن يعرف لغته ، نثرها ونظمها وشعرها وكتابها ، فكذلك كان لابد له أن يعرف أنساب العرب وأخبارهم وسيرة الرسول (صلى الله عليه وسلم) وأخبار الفتوحات وتواريخ الخلفاء والدول ، وكان لزاماً عليه أن يعرف بلاد الإسلام ومدائنها والطرق إليها مع ما تيسر من أحوال أهلها وصفاتهم وعاداتهم . ومن هنا كان من الصعب أن تفصل فى كثير من الأحيان بين الجغرافى والمؤرخ والأديب فى عالم الفكر الإسلامى ، فلو تناولنا كتاباً أدبياً صرفاً كالبيان والتبيين للجاحظ مثلاً . ودرسناه دراسة دقيقة لاستخرجنا منه من المعلومات التاريخية الصرفة والملاحظات الجغرافية الخالصة ، الأمر الذى يضع الأديب أبا عثمان عمرو بن بحر فى صفوف الجغرافيين والمؤرخين (٣) .

أخذت بعد ذلك الجغرافيا والفكر الجغرافى طريق الازدهار والمنهجة والتأليف ، فقد اتسعت الدولة الإسلامية وتنوعت بيئاتها وأعراقها وزادت الحاجة لمعرفة الكثير عن هذا العالم الفسيح ، عندئذ صدر التأليف فى الجغرافية عند المسلمين عن نزوع نحو المعرفة وتعدد الثقافات والثروات والدروب والمسالك والممالك الذى امتازت به أمم الإسلام فى عصر النهوض ، فهو مظهر من مظاهر الشعور بالعزة الذى يصاحب الأمم الصاعدة وازدهار العلم والمعرفة .

وفى ذلك يقول المقدسى فى ذلك بمقدمة كتابه الشهير "أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم" : ووجدت العلماء قد سبقوا إلى العلوم ، فصنفوا على الابتداء ، ثم تبعتهم الأخلاف فشرحوا كلامهم واختصروه ، فرأيت أن أقصد علماً قد أغفلوه ، وانفرد بعض لم يذكره إلا على الإحلال ، وهو ذكر الأقاليم الإسلامية وما فيها من المغاور والبحار والبحيرات والأنهار وعلمت أنه باب لا بد منه للمسافرين والتجار ولا غنى عنه للصالحين والأخبار ، إذ هو علم ترغب فيه الملوك والكبراء ، وتطلبه القضاة والفقهاء وتحبه العامة والرؤساء (٤) .

ويقول ابن حوقل فى مقدمة "صورة الأرض" : "وكان مما حضى على تأليفه وحثنى على تصنيفه وجذبنى إلى رسمه أننى لم أزل فى حال الصبوة شغفاً بقراءة كتب المسالك ، متطلعاً إلى كيفية البين بين الممالك فى السير والحقائق ، وتباينهم فى المذاهب والطرائق ... وترعرعت فقرأت الكتب الجليلة المعروفة والتواليف الشريفة المصنوفة ، فلم أقرأ فى المسالك كتاباً مقنعاً ، وما رأيت فيها رسماً متبعاً ، فدعانى ذلك إلى تأليف هذا الكتاب ." (٥) .

وساعد اتساع الدولة الإسلامية واحتكاكها بالشعوب والثقافات على وصول أراء الهنود والإيرانيين فى الفلك والجغرافيا إلى المسالكين والجغرافيين من العرب ، فقد ترجم المسلمون كتابى السادهانتا "السند هند" وأركان الذين ألفهما براهما جوبتا حوالى ١٥٤هـ / ٧٧١م ، وقام على ترجمته نفر من الهنود ورواد الفلك والجغرافيا المسلمين مثل إبراهيم بن حبيب الفزارى ويعقوب بن طارق وغيرهما ، وعن الهنود أخذ العرب المسلمون القول بالخط الذى يقسم القبة السماوية ويمر بموقع أرين أو العرين . ثم قسموا دائرة القبة بعد ذلك إلى ٣٦٠ قسماً سُمى كل قسم منها درجة ويمر بكل منها خط من خطوط الطول . وفى وقت لاحق أخذ المسلمون العرب عن الإغريق من أمثال كلاوديوس وبطليموس السكندرى وترجموا لهم الكتب مثل كتاب المجسطى* ١.

* - المجسطى Magasiti كتاب يوجز ما سبق غيره عن حجم الأرض ومواقع أماكن معينة عليها ، وفيه تحسينات فى بعض مباحثه . وتوسع مؤلفه فى استعمال الكسور الستينية ، والكتاب فى ١٣ مقالة : أولها فى المقدمات مثل : كروية الأرض والسماء وثبوت الارض فى

كما كان لاتساع العالم الإسلامي وتعدد فتوحاته كثرة الدروب والمسالك فكانت الرحلة التي تعد أهم جوانب الجغرافيا الإسلامية ، وقد سلك هذا الطريق الجغرافيون المسلمون بعد أن تأثر الكثير منهم بالأفكار اليونانية ، وظهر ما يعرف بالمسالكين الجغرافيين ، إذ تعتمد أفكارهم واتجاهاتهم على الرحلة والمشاهدة وسؤال أهل البلاد وتحقيق ما يدلون به من معلومات ومقارنات غيرها ودراسة الكتب السابقة ومراجعتها (٦).

ويعتبر من رواد هذا الفكر الجغرافى القائم على الرحلة والمشاهدة هو : احمد بن أبى يعقوب بن واضح الكاتب ، المعروف باليعقوبى "توفى بعد ٢٧٨هـ / ٨٩١م" وهو واضح أول تاريخ للعالم عند المسلمين ، قد بين فى فاتحة كتاب "البلدان" فقال : "إنى عنيت فى عنفوان شبابى وعند احتيال سنى وحدة ذهنى "بعلم أخبار البلدان" والمسافة ما بين كل بلد وبلد ، لأنى سافرت حديث السن ، واتصلت أسفارى ودام تغربى ، فكنت متى لقيت رجلاً من تلك البلدان سألته عن وطنه ومقره ، وإذا ذكر لى محل داره وموضع قراره سألته عن بلده وبلدته ما هى وزرعه ما هو ، وساكنيه من هم : عرب أم عجم ؟ ... شرب أهله حتى اسأل عن لباسهم ... وديانتهم ومقالاتهم والغالبين عليه والمتراسين فيه ... وما مسافة ذلك البلد ، وما يقرب منه من البلدان ... ثم اثبت كل ما يخبرنى به من ما أثق بصدقه ، واستظهر بمسألة قوم بعد قوم ، حتى سألت خلقاً كثيراً وعالم من الناس فى الموسم ، وغير الموسم من أهل المشرق والمغرب . وكتبت أخبارهم ورويت أحاديثهم ، وذكرت من فتح بلداً بلداً ، وجند مصرأ مصرأ من الخلفاء والأمراء ، ومبلغ خراجه وما يرتفع من أماله ، فلم أزل أكتب هذه الأخبار ، وأؤلف هذا الكتاب دهرأ طويلاً ، وأضيف كل خبر إلى بلده ، وكل ما أسمع به من ثقات أهل الأمصار إلى ما تقدمت عندى معرفته ..." (٧) .

وتعددت الرحلة عند المسلمين ؛ إذ فيهم الرسول الذى ترسله الدولة إلى ناحية من النواحي للكشف عن مسألة علمية مثل "سلام" الذى أرسله الخليفة الواثق عام "٢٢٧هـ / ٨٤٢م - ٢٣٢هـ / ٨٤٧م" ليستطلع أمر سد يأجوج ومأجوج ، وفيهم صاحب البريد الذى يتولى نقل مراسلات الدولة ورسلاها كأبى الفرج قدامة بن جعفر "المتوفى بعد سنة ٣٢٠هـ / ٩٣٢م" ، فقد كتب موسوعة شاملة لكل ما يحتاج إليه كتاب الدولة من المعارف وأسماء "كتاب

مركز العالم وميل فلك البروج الخ .. وثانيها فيما يختلف باختلاف عروض البلدان مثل طول الليل والنهار وارتفاع القطب والمطلع .. والثالثة فى أوقات نزول الشمس فى نقطى الاعتدال ونقطتى الانقلاب ومقدار السنة الشمسية وحركتى الشمس المعتدلة والمختلفة .. الخ ، والرابعة والخامسة والسادسة فى حركات القمر وحسابها واجتماع النيرين وكسوفهما .. الخ ، والسابعة فى الكواكب الثابتة ، والمقالات

صناعة الكتابة" وفيهم المغامر فى رحلته كالمقدسى ، وفيهم السفير الذى يندبه الخليفة للسفارة إلى بلد غريب مثل احمد بن فضلان ، الذى أرسل إلى ملك البلغار فى حوض الفولجا ، وفيهم التاجر الذى قطع آلاف الأميال فى برار وقفار ومخاطر ثم يسجل ذكرياته ومشاهداته ، مثل سليمان التاجر "نهاية القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى" وقد وصف فى كتابه "سلسلة التواريخ" الرحلة بالبر إلى الصين والهند عن طريق فارس ^(٨) وفيهم الرحالة الملاحين أمثال احمد بن ماجد وسليمان المهري الذين تركوا كتاباتهم عن الملاحة وعلوم البحار .

ووسط هذه الظروف التى شهدت عنفوان الدولة الإسلامية ازدهر علم الجغرافيا كسائر العلوم الأخرى كعلم فن الخرائط التى أبدع فيها الجغرافيون المسلمون وتجلى هذا الفن فى خريطة الإدريسى كأول خريطة حقيقية لصورة الأرض والتى جسدها فى هيئة كرة لتوحى للغرب بعد ذلك بكروية الأرض والتى كانت سبباً مباشراً فى حركة الكشوف الجغرافية التى أسفرت عن اكتشاف الأمريكتين وباقى العالم الجديد ومن ثم باقى أجزاء العالم قاطبة ، وساعد فى هذه الحركة التاريخية فن الملاحة الإسلامية التى وفرت الأدوات والأسفار المعينة على ذلك ، كما ترك المسلمون من الجغرافيين من أخبار الرحلات والمسالك ما وطد فيما بعد حركة الكشوف وتوكيدها فى كافة العالمين القديم والجديد معاً .

وجدير بالذكر أن الدولة الإسلامية قد بلغت أوج عزها ومنعتها فى قرون قليلة عقب ظهور الإسلام وهو زمن قصير نسبياً ، تغلبت فيه على دول ذات تاريخ وحضارة وامتد ملك المسلمين خلاله من أطراف الصين شرقاً إلى مشارف المحيط الأطلسى غرباً وجابت رحالوهم وعلماؤهم أبواب أوروبا تقريباً.

وسوف يزول العجب إذا عرفنا أن مرد ذلك كان لوحددة الأمة وتمسكها بما نشأت عليه من تربية إسلامية سامية تلك التى تحض على الجهاد والاجتهاد والاتحاد ونبذ الأحقاد وكبح هوى النفس والتضحية بكل نفيس وغال ، لرفع شأن كلمة الحق والدين والشرف ، وحين دببت الفرقة بين المسلمين تقطع ملكهم إلى دويلات وصاروا لقمة سائغة لأعدائهم . وصدق الله تعالى حيث قال : {إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ} ^(٩) . وفى آية أخرى قال تعالى : {وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ} ^(١٠)

العوامل التي جعلت مكة في بؤرة الفكر عند الرحالين :

كانت مكة دائماً في فكر الرحالين والجغرافيين المسلمين والعرب فضلاً عن غير المسلمين ، وكانت الرحلة إليها مطلباً ومراداً على طول الدوام ، وقد ساعد على ذلك عدة عوامل وتنحصر أهمها في الآتي :

أ- اختصاص مكة المكرمة بقدسية ربانية لا تتوفر لغيرها في أى بقعة من بقاع الأرض :

فقد كان العرب في مختلف عصورهم قبل الإسلام يقدسون مكة ، حيث بيت الله الحرام ، فيقومون بتأدية العبادات الدينية الممعة في القدم على صورة تناسب فطرتهم وتتمشى في ذات الوقت مع جاهليتهم (١١) .

وكان الحج إلى بيت الله الحرام بمكة المكرمة ، ركن الإسلام الخامس ، الذي يعد في ذاته من أقدم العبادات السماوية والتي عرفتها البشرية بعد أن دعا إليها أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام فجاء في قوله تعالى : { إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ } (١٢) ، وقد أسس إبراهيم الخليل عليه السلام الكعبة لتكون أول بيت وضع لعبادة الله تعالى في الأرض (١٣) . بل وأسس عليه السلام أول بيت مبارك لغاية مقصودة ، وهي الترحال لمكة وبيت الله الحرام فقال تعالى : { وَادِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ } (١٤) . وعندما جاء الإسلام وفرض شعيرة الحج على معتنقيه دخلت تلك الشعيرة الدينية التاريخ من أوسع أبوابه ، بل أصبحت عنصراً عظيم الأهمية من عناصر التاريخ الإسلامي . فشدت لها الرحال فقطعت لذلك المسافات الشاسعة المقفرة لتأدية تلك الفريضة الدينية تيمناً بسنن الأنبياء (١٥) .

ب- فاعلية الموقع المكي في الربط بين عوالمها المحيطة :

ظهرت مكة كأبرز المدن بالحجاز بل وشبه الجزيرة العربية قاطبة حتى قبل الإسلام وعززت بعد ذلك بالإسلام وتميزت ببعض مظاهر الحضارة نتيجة أوضاعها الاقتصادية والسياسية ، حيث بيت الله الحرام ، وإشراف قبيلة قريش على الكعبة وحركة التجارة من خلال رحلتى الشتاء والصيف بين الشام واليمن (١٦) . لتكون مكة على الدوام مقصداً للرحالة والتجار على طول الدوام . ولتلعب مكة وطرقها دور الربط بين أقاليم العالم المحيطة بها . وقد عززت ذلك آيات القرآن الكريم فقال تعالى : { لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ * إِيْلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ * } (١٧) . وروى ابن بحيح عن مجاهد قال : لا يشق عليهم رحلة شتاء ولا صيف منة منه على قريش . وقال الهروي وغيره : وكان أصحاب الإيلاف أربعة أخوة : هاشم ، وعبد شمس ، والمطلب ، ونوفل

بنو عبد مناف . فأما هاشم ؛ فإنه كان يؤلف ملك الشام ؛ أى أخذ منه حبلاً وعهداً يأمن به فى تجارته إلى الشام . وأخوه عبد شمس كان يؤلف على الحبشة . والمطلب إلى اليمن . ونوفل إلى فارس . فكان هؤلاء الأخوة يسمون المجيرين . فكان تجار قريش يختلفون إلى الأمصار بحبل هؤلاء الأخوة ، فلا يتعرض لهم . قال الأزهرى : الإيلاف : شبه الإجارة بالخفارة يقال : ألف يؤلف : إذا أجار الحمائل بالخفارة . والحمائل : جمع حمولة قال : والتأويل : أن قريش كانوا سكان الحرم ، ولم يكن لهم زرع ولا ضرع ، وكانوا يميرون فى الشتاء والصيف آمنين ، والناس يتخطفون من حولهم ، فكانوا إذا عرض لهم عارض قالوا : نحن أهل حرم الله . فلا يتعرض الناس لهم (١٨) .

وقد ساعد فى الارتحال لمكة المكرمة ازدهار تجارتها المرافقة للحجيج وطلاب العلم طوال تاريخها عبر العصور الإسلامية ، وقد ساعد على ذلك . موقع مكة الجغرافى الفريد على تخوم جبال السراة ، وعلى أطراف تهامة جعلها فى بيئة جغرافية مميزة ، وإمكانية توفر ماء الشرب فيها ، ولاسيما بعض المشاريع التى أجريت لها خلال العصور الإسلامية المختلفة ونشاط سوقها التجارى ، وتوفر الميرة فيه جعلها ملتقى طرق القوافل البرية التى تجوب شبه الجزيرة العربية شمالاً وجنوباً وشرقاً ، حيث يتوفر إلى جانب الماء الصالح ما تحتاجه القوافل من المؤن والأرزاق اللازمة لمواصلة الرحلة إلى الجهات التى تقصدها ، فضلاً عن تبادل تلك المتاجر مع تجارة مكة (١٩) .

كما ساعد على الارتحال لمكة المكرمة قربها من البحر الأحمر ، وامتلاكها بعض الموانى التجارية على شاطئه الشرقى كجدة والسرين ، كما فى الشكل رقم (١) .. أما عن جدة ، فقد كانت واجهة مكة البحرية ، وعتبتها على البحر ، وكانت المراكب تأمها من مصر واليمن وغيرها من البقاع ، فما تكاد تنتهى إلى جدة حتى تسير منها المتاجر مثل عمان واليمامة وعدن وصنعاء ودمشق والبصرة وبغداد والفسطاط والقلم وعيذاب وغيرها (٢٠) .

أما عن ميناء السرين ، فقد وصفها المقدسى بأنها معدن الحبوب والخيرات والتمور .. والعسل الكثير . وقد أسهمت السرين كجدة فى تجارة مكة فالإضافة إلى خيرات السروات التى كانت تلقى طريقها عبر هذا الميناء إلى جدة ثم مكة ، وكانت تجلب إلى السرين مختلف

الحبوب من عثر وجودة ، وغيرها ، وكانت بالمدينة سوق نشط يقوم على تجارة واسعة محلية وخارجية ، وكان لها تجارة واسعة خاصة مع الحبشة ، وقد أسهم ميناء جدة إلى جانب السرين فى تمكين مكة من تجارة البر والبحر معاً مع الراحلين إليها والخارجين منها^(٢١) وسوف نوضح أكثر لأهمية هذين المينائين فيما بعد .

ج- حضور مكة المستمر في خاطر الجغرافيين والرحالين العرب والمسلمين :

كانت مكة المكرمة دائماً في فكر الرحالين والجغرافيين على الدوام ويتضح ذلك في إنتاجهم الفكري من خلال كتاباتهم وخرائطهم التي أخرجوها ، ويتمثل ذلك بوضع الجنوب بأعلى الخريطة عكس ما نراه اليوم من خرائط ، وهذه ظاهرة حاول العديد من الباحثين تفسيرها ، ففسرها البعض بان لهذا الأمر مغذى دينياً ، ذلك أن جميع العواصم الإسلامية في ذلك الوقت تقريباً كانت تقع شمال مكة المكرمة ، مثل المدينة المنورة ، والكوفة ، ودمشق ، وبغداد ، والقاهرة ، ومعنى ذلك أن الخليفة كان يتجه في صلاته صوب الجنوب ، أي صوب الكعبة ، لذلك كان لابد أن يوضع الاتجاه الجنوبي في اعلى الخريطة ، لأن الاتجاه الجنوبي يعنى الاتجاه صوب القبلة ، وهى اشرف بقعة يتجه إليها المسلمون ، كما كان متبعاً من ذى قبل في حالة الخرائط الرومانية في العصر المسيحي ، حيث كان الشرق "Orient" في أعلى الخريطة لأن الشرق بيت المقدس ، وما زالت كلمة "Orientation" التى تعنى توجيه الخرائط تشير إلى الأصل التى اشتقت منه وهو "Orient" يوم كان اتجاه الشرق في أعلى الخريطة ، حيث الأماكن المقدسة المسيحية (٢٢) . كما أبدع الرحالة في رسم الخرائط الدينية التى تتوسطها مكة حيث الكعبة المشرفة ، والتي توضح اتجاه القبلة وطرق الحج ، وقد تجلت في ذلك خريطة الصفاقصى كما هو موضح في الشكل رقم (٢) .

د- نظرة الإسلام المشجعة على الرحلة :

ينظر الإسلام إلى نشاط الرحلات والدعوة إليها نظرة تحفيز وتشجيع وتنشيط ، ويذكر صلاح الدين الشامى صاحب كتاب (الرحلة عين الجغرافيا المبصرة فى الميدان) أنه : لأن الإسلام دين حضارى متنور ، ودولة متفتحة ، ولأن التحضر أو التفتح يكفل التقدم ويؤمن حركة الحياة ويدعمها ويبشر بحياة أفضل ، فلقد أمسك المسلمون بزمام الرحلة وتحمسوا لها ، بل والتهب نشاط الرحلة الإسلامية فى إطار اهتمام رشيد مطمئن وتحولات تبشر بحياة أفضل وحصاد وفير . وهكذا نالت الرحلة الإسلامية حقها الكامل من الاهتمام والأمان من

ناحية ، واستحقاقها الفعال من قوة الدفع والحوافز على الطريق فى البر والبحر من ناحية أخرى ، ووصل نفر نشيط من المسلمين أصحاب الخبرة فى الرحلة أداء دورهم الوظيفى والخروج فى الرحلة لإنجاز المهام (المهارات) المنوطة بهم فى كل رحلة فى البر وفى البحر على حد سواء . (٢٣)

ويقول احد شيوخ الأزهر السابقين ، محمد الخضر حسين - التونسي الأصل - إن الإسلام لم يدع وسيلة من وسائل الرقى إلا نبه عليها ، وندب إلى العمل بها ، وهكذا شأنه فى الرحلة ، فقد دعا إليها رامياً إلى أغراض سامية منها : طلب العلم والتفقه فى الدين ، والمعرفة بأحوال الأمم الحاضرة (٢٤) .

وفى أسترشادة لأهمية الرحلة ، ودعوة الإسلام إليها بدأ الرحالة محمد السنوسى كتابه (الرحلة الحجازية) بما سماه (نموذج السفر) ، وأورد فيه من الآيات القرآنية الكريمة ما ينبه إلى فضيلة السفر والدعوة إليه . كتب يقول : لا يخفى أن الله جلت حكمته لم يجمع منافع الدنيا فى أرض واحدة ، بل فرق المنافع والجهات أحوج بعضها إلى بعض ، ولذلك كانت الأسفار مما تزيدنا علماً بقدرة الله وحكمته وتدعونا إلى شكر نعمته ، والمسافر يجمع العجائب ويكسب التجارب ويجلب المكاسب . وفى القرآن الكريم آيات كثيرة تنبه على فضيلة السفر وتدعو إليها ، قال تعالى : {هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ} (٢٥) وقال تعالى {وَأَيَّةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِكِ الْمَشْحُونِ} (٢٦) وقال تعالى {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا} (٢٧) وقال تعالى {قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} (٢٨) وقال تعالى {قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِّبِينَ} (٢٩) وقال تعالى {أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} (٣٠) إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة (٣١) .

وقد عرفت البيئة العربية السفر ومارست الترحال فى شبه الجزيرة العربية والبلدان المتأخمة ، وقاموا برحلتى الشتاء إلى بلاد الشام والصيف إلى بلاد اليمن ، وأبحرت سفنهم قبيل مجيئ الإسلام فى مياه المحيط الهندى ، حيث اتجهوا شرقاً نحو المحيط الهندى وغرباً إلى جنوب إفريقيا ، كما أن رحلات العرب فى الجاهلية أدت إلى أن يعرفوا الطرق البحرية فى مناطق متعددة ، كما أنها نمت إلى ما نسميه اليوم بالتبادل التجارى للسلع ، وأدت إلى ظهور طبقة من الرأسماليين الذين كانوا ينمون أموالهم بهذه الرحلات (٣٢) .

وتجدر الإشارة إلى أن الرحلات التكليفية كانت قد بدأت فى عهد النبى (صلى الله عليه وسلم) ، إلا أنها كانت محدودة كرحلة تميم الدارى - وهو صحابى وواه النبى (صلى الله عليه

وسلم) أرضاً قرب الخليل ، ورحلة عبادة بن الصامت التي قام بها بتكليف من أبى بكر الصديق (رضى الله عنه) - قاصداً ملك الروم يدعو للإسلام . ولم يترك أثراً لهاتين الرحلتين سوى بعض الأخبار عنهما فى كتب الأدب والتاريخ (٣٣) . وازدهرت الرحلة فى الدولة الإسلامية للأسباب الآتية :

١ - المساحة الشاسعة للدولة الإسلامية وعدم القدرة على تحقيق وحدة سياسة واحدة ، كما كان فى القرن الأول من الهجرة النبوية ، فقد فقدت الإمبراطورية الإسلامية وحدتها السياسية فى منتصف القرن الثانى الهجرى (الثامن الميلادى) ، ولكن روابط الدين واللغة والثقافة ظلت تجمع بين سكان الدولة الإسلامية ، فكانوا - رغم ذلك - يشعرون بأنهم أبناء إمبراطورية إسلامية بعيدة الأطراف ، وقد كانت تلك الروابط قوية فى العصور الوسطى ، ولم تكن القوميات الإقليمية قد عظم شأنها بعد ، وكانت أنحاء هذا الملك الواسع الذى أسسه المسلمون تتطلب الدراسة والوصف ، تمهيداً لتطبيق أحكام الشريعة ، وتسهيلاً لمهمة الولاة فسافر القوم لدراسة البلاد وطرقها وحاصلاتها وخارجها وما إلى ذلك ، مما لا بد منه للتأليف فى علم تقويم البلدان ، وطبيعياً أن تكون الرحلات والأسفار من أول السبل لطلب العلم فى تلك العصور فقد كانت الكتب نادرة ، وكانت الدراسة العلمية تقوم مقام ما نصنعه اليوم من تتبع المراجع والمؤلفات التى تزدهم بها خزانات الكتب الخاصة والعامة . فضلاً عن ذلك فقد تعددت مراكز الثقافة فى ديار المسلمين وكان رجال العلم يتناقلون فى طلبه من إقليم إلى آخر ، يدرسون على مشاهير الأساتذة ، ويلقون أعلام الفقهاء والمحدثين واللغويين ، والأطباء والفلاسفة والرياضيين (٣٤) .

وتأكيداً لدور الرحلة فى التراث الجغرافى للعرب والمسلمين . يؤكد عبد الله محمد احمد المقدسى ، أحد أقطاب التراث الجغرافى فى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) أهمية رحلاته فى أنحاء العالم الإسلامى من أجل المعاينة ، وجمع المادة العلمية التى سجلها فى كتابه الشهير (أحسن التقاسيم) فيقول فى مقدمته : نحن لم نبق إقليمياً إلا وقد دخلناه وأقل سبب إلا وقد عرفناه ، وما تركنا مع ذلك البحث والسؤال والنظر فى الغيب ، فانتظم كتابنا هذا ثلاثة أقسام أحدها ما عايناه ، والثانى ما سمعناه من الثقات ، والثالث ما وجدناه فى الكتب المصنفة فى هذا الباب وغيره . وما بقيت خزانة تلك إلا وقد لزمتهما ، ولا تصانيف فرقة إلا وقد تصفحتها ، ولا مذاهب قوم إلا وقد عرفتها ، ولا أهل زهد إلا وقد خالطهم ولا مذكرو بلد وقد شهدتهم حتى لى ما ابتغيته فى هذا الباب (٣٥) .

٢- كان الحج من أهم العوامل التي دفعت بالمسلمين من كل فج عميق وعلى كل ضامر إلى الرحلة والانتقال إلى مكة ، فالحج كان ولا يزال رحلة يتشوق إلى أدائها كافة الناس ، وليس علماءهم أو فقهاءهم فقط ، نتيجة ذلك اكتسبت رحلة الحج صفة تراثية شعبية ، كما أن العديد من الحكام والسلاطين قد أقاموا على الطريق الكثير من المنشآت لخدمة الحجاج ، وعهدوا إلى الجنود تأمين طريق الحج وحماية سالكيه ، كما ان الحجاج كانوا يتجمعون فى قوافل تبدأ صغيرة ثم تنمو كلما تقدم بها الطريق ، بما ينضم إليها من وفود ، حتى يصبح فى النهاية للعراق حبيجه ، وللشام حبيجه ، ولإفريقيا حبيجها ، وتسير القافلة مجتمعة فى ألفة وانتظام وتعاطف شامل ، يحميها جنود الحكام ، ويرحب بها سكان المدن والقرى عند المرور - فى معظم الأحيان - ويزداد الترحيب كلما زاد فى القافلة عدد العلماء ورجال الدين (٣٦) .

٣- كانت التجارة عاملاً هاماً يقتضى القيام بالرحلة والسفر البعيد فى أقاليم العالم الإسلامى الشاسعة ، ومع أن تجارة المسلمين فى العصر الذهبى للدولة الإسلامية كانت قد بلغت شأنًا لم تبلغه أى أمة قبل عصر الاكتشافات الجغرافية الأوروبية الحديثة ، إلا أن الاجتهاد العربى كان قد أفلح منذ زمن بعيد فى اختراق حاجز المسافة ناحية الشرق ، وفى انتظام الرحلة العربية الإسلامية فى المحيط الهندى (٣٧) ، ولعل من أشهر الرحلات البحرية التجارية فى المحيط الهندى والتي تمت خلال النصف الثانى للقرن الثالث الهجرى هى رحلة التاجر سليمان السيرافى . ومن التجار الرحالة الذين جاءوا فى عصر لاحق نذكر مثلاً ياقوت الحموى ، الذى كانت رحلاته للتجارة أساساً ، إلا أن مؤلفه الجغرافى (معجم البلدان) قد اكتسب شهرة واسعة (٣٨) .

٤- التكليف من قبل الحكام ، إذ كانت هناك رحلات تكليفية بمهام رسمية كالتى بعثها الواثق بالله إلى حصون جبال القوقاز عام ٢٢٧هـ ، ويدخل فى باب التكليف بالرحلة الحاجة إلى المعلومات والبيانات للأغراض الاقتصادية أو الدينية أو العلمية ، مثل هذا النوع تقوم الدولة بتمويلها . وغير هذا النوع من الرحلات كانت الرحلة الإسلامية بصفة عامة جهداً ذاتياً واجتهاداً شخصياً خالصاً (٣٩) .

٥- التقدير البالغ للرحالة فى كافة أمصار العالم الإسلامى ، إذ أن الرحالة المسلمين قد ركزوا أسفارهم داخل نطاق العالم الإسلامى واسع الأرجاء ، والممتد من المغرب العربى والأندلس إلى أقصى الشرق والهند وحتى الصين وقد كانت الرحلة خارج هذا النطاق محدودة وغير واردة على نطاق واسع ، وقد سهل الإتصال البرى الانتقال فى ربوع البلاد شرقاً وغرباً ، علاوة على

توفير الكثير من التسهيلات لإيواء المسافرين جنباً إلى جنب ، وإلى ما حظى به الرحالة أيضاً من كرم وضيافة العلماء والحكام الوافدين إليهم ، ولولا ذلك لربما تعزز على الرحالة ابن بطوطة مثلاً أن يقطع آلاف الأميال متنقلاً في ربوع البلاد مقيماً سنوات في بعضها أو زائراً للبعض الآخر لمدة قصيرة . فقد قطع ابن بطوطة هذه المسافات الطويلة دون أن يشعر أنه خرج من بلده أو فارق أهله ، ووجد في كل مكان من يستقبله ويؤويه ويقدم له الطعام ، لا على سبيل التكرم والتفضل ، بل لأنه كان هناك تنظيم محكم وضعته الأمة ، وقامت على رعايته وتنفيذه دون تدخل الدولة : ذلك هو نظام الزوايا والمدارس والرُّبَط (جمع رباط) وهي دور ضيافة ينشئها رجال الطرق الصوفية أو بعض أهل الخير أو كبراء أهل الدولة من مالهم الخاص ، وقد تنشئها الجماعة نفسها ، وتتولى أمرها ورعاية النازلين بها من أموال تجمع لهذا الغرض (٤٠) .

هـ- الاعتقاد عند الكثيرين من الرحالين الجغرافيين في مركزية مكة في عالمهم :

اهتم علماء المسلمين بخطوط الطول نظراً لارتباطها بتوقيت الصلاة ، وكانت نقطة الخلاف بينهم هي موقع خط الطول الرئيسي ، فقد اتفق البتاني وأبو الفدا مع بطليموس على أنه يمر بجزر كناريا "جزر الخالدات" بينما وضع جغرافيون آخرون أمثال المسعودي هذا الخط بحيث يسير ما بين الساحل الشرقي لإفريقيا وجزيرة زنجبار على الساحل الشرقي الإفريقي والتي أطلقوا عليها اسم "قبة الأرض" .

والمثير في هذا الأمر ، هو اختيار المسعودي ومشاركه في هذا الرأي خط الطول الرئيسي الذي يسير مع قبة الأرض هذا ، فهذا الخط يكاد يمر أيضاً بمكة المكرمة ، الأمر الذي يجعل خط طول مكة المكرمة هو خط الطول الرئيسي للكرة الأرضية وليس خط جرينتش ، وهذا ما أثبتته دراسات حديثة لمجتهدين مخلصين - نود توضيحها - ففي محاولة جادة لتحديد الإتجاهات الدقيقة إلى القبلة "أى إلى الكعبة المشرفة" من المدن الرئيسية في العالم باستخدام الحواسيب لوحظ تمركز مكة المكرمة في قلب دائرة تمر بأطراف جميع القارات أى أن اليابسة على سطح الكرة الأرضية موزعة حول مكة المكرمة توزيعاً منتظماً ، وأن هذه المدينة المقدسة تعتبر مركزاً لليابسة كما في شكل رقم (٣ "أ") (٤١) .

وقد أضاف البحث العلمي أن الأماكن التي تشترك مع مكة المكرمة في نفس خط الطول "٣٩.٨١٧ شرقاً" تقع جميعها في هذا الإسقاط على خط مستقيم وهو خط الشمال الجنوب الجغرافى المار بها أى أن المدن التي تشترك مع مدينة مكة المكرمة في خط طول يكون اتجاه الصلاة فيها إلى الشمال أو الجنوب الجغرافى تماماً ، والمدن التي تتجه في الصلاة إلى الجنوب

الجغرافى تبدأ من القطب الشمالى للأرض إلى خط عرض مكة المكرمة "٢١.٤٣٧ شمالاً" وأما المدن التى تقع على خط العرض الممتد من جنوب مكة المكرمة إلى القطب الجنوبى فإن اتجاه القبلة فيها يكون ناحية الشمال الجغرافى تماماً وكذلك الحال على خط الطول المقابل لخط طول مكة المكرمة ، وهو خط الطول المرقم "١٤٠.١٨٣ غرباً" فإن المدن الواقعة عليه تصح الصلاة فيها نحو الشمال الجغرافى أو الجنوب الجغرافى تماماً حسب موقع دائرة عرض كل منها بالنسبة لدائرة عرض مكة المكرمة ، فالمدن الواقعة إلى الجنوب من دائرة العرض المقابلة لدائرة عرض أم القرى ، أى من دائرة عرض "٢١.٤٣٧ جنوباً" إلى القطب الجنوبى تتجه فى صلاتها إلى الجنوب الجغرافى تماماً ، والمدن الواقعة شمالاً من دائرة العرض ذلك إلى القطب الشمالى تتجه فى صلاتها إلى الشمال الجغرافى تماماً . أما المدن الواقعة على خط الطول المقابل لمكة المكرمة تماماً وعلى دائرة عرضها تماماً فإن الصلاة تجوز فيها نحو أى من الشمال أو الجنوب الجغرافيين تماماً . كما تجوز فى كل الاتجاهات الأخرى شرقاً وغرباً ، وذلك لوقوع تلك المدينة على امتداد قطر الكرة الأرضية المار بمكة المكرمة كما فى الشكل (٣ ب) ومن هنا يكون خط طول مكة المكرمة خط الأساس للكرة الأرضية ، أى بالنسبة إلى مكة المكرمة لتمائل خطوط الطول حول خط طول تلك المدينة المقدسة تماثلاً مذهباً ، بدلاً من خط جرينتش الذى فرضته الهيمنة البريطانية على العالم فى العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر الميلادى ، والذى من الخطأ اعتباره خط الأساس للكرة الأرضية ؛ لأن زاوية الانحراف المغناطيسى فى الجزر البريطانية كانت فى حدود ٨.٥ درجة إلى الغرب من الشمال ، وهذه القيمة تتناقص بمعدل نصف درجة تقريباً كل أربع سنوات إذا بقيت تلك المعدلات ثابتة ، ويظهر ذلك فى خصوصية خط طول مكة بانطباق الشمال المغناطيسى على الشمال الحقيقى (٤٢) .

* الرحلة إلى مكة :

ساعدت الأهمية الدينية والجغرافية على ازدهار الرحلة إلى مكة من كافة أنحاء العالم خلال العصور المختلفة ، وتتنوع الرحلة إلى مكة بحراً وبراً وتتمثل كما تحدث عنها الرحالون فيما يلي :

أولاً : الرحلات البحرية عبر البحر الأحمر :

تعددت أسماء ذلك البحر عند الرحالين والمؤرخين المسلمين لعل أهمها بحر الحجاز ، ذلك النزاع الممتد بين العالمين الآسيوي والأفريقي^(٤٣) . وكان التجار والبحارة من العرب والمسلمين فيما بعد على دراية بطبيعة البحر الأحمر ، الذي كان خاضعاً لهبوب الرياح الموسمية الجنوبية فضلاً عن رياح البحر المتوسط الشمالية ، وقد ذكر الملاح العربي ابن ماجد أن خير أوقات الخروج من باب المنذب وعدن هو اول مايو من كل عام . حيث الرياح الموسمية الجنوبية . وقد عهد البحر الأحمر المخاطر الكامنة ، حيث الشعاب المرجانية والصخور الناتئة التي تملأ سواحله والدوامات المختلفة في أرجائه ، إلى جانب العواصف التي كثيراً ما كانت تؤدي إلى تصدع السفن وإغراقها آنذاك ، إلى جانب هذه المخاطر الطبيعية فقد هددت الرحلة عبر البحر الأحمر القراصنة الذين ملأوا البحر طوال العصور الوسطى^(٤٤) . وقد خدم الرحالة إلى مكة

الموانى الواقعة على البحر الأحمر ولعل أهم هذه الموانى على الإطلاق ميناء جدة وميناء السرين .

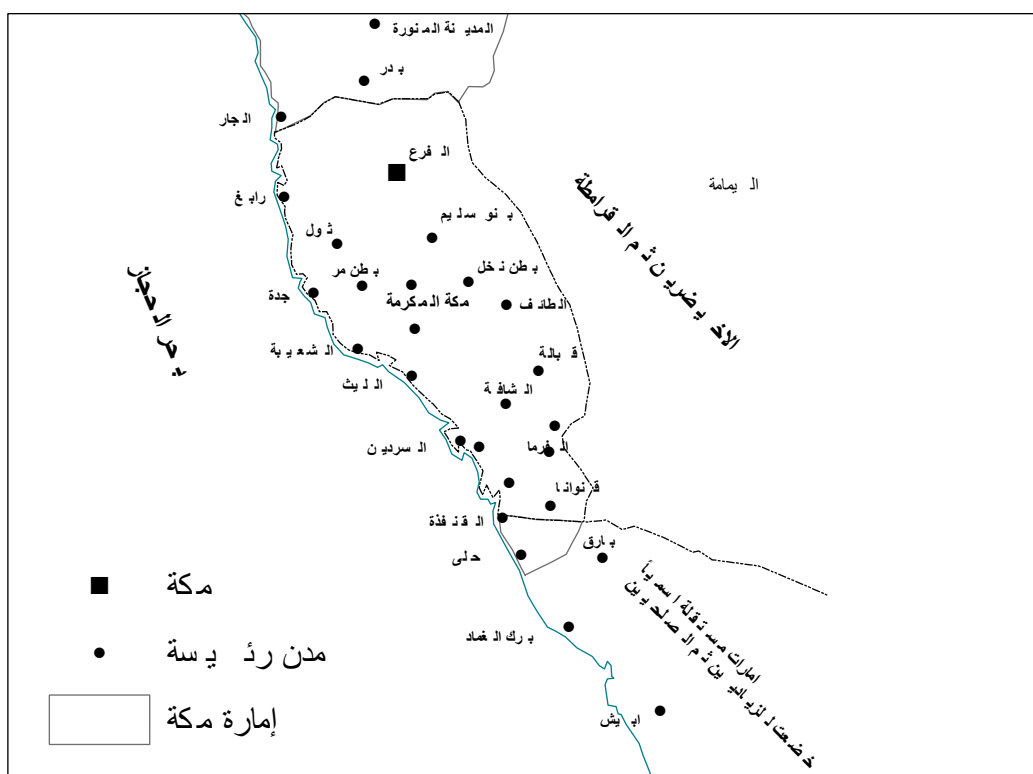
* فعن ميناء جدة : فهو الميناء الرسمى لمكة المكرمة منذ القديم وتقع إلى الغرب منها وتفصلهما مسافة أربعون ميلاً ، وكانت تستغرق مرحلتين بوسائل النقل المعهودة آنذاك . ويقال أن جدة قد بناها الفرس ، وتواضعت مكانتها ووصفت بانها كانت قبل الإسلام قرية صغيرة من قرى الحجاز وقد اتخذت جدة ثغراً لمكة سنة ٢٦ من الهجرة فى خلافة عثمان بن عفان - رضى الله عنه - ويذكر أن الميناء الذى كانت تعتمد عليه مكة قبل ذلك هو الشعبية كما هو موضح بالشكل رقم (١) وهو يمثل خور عظيم يقع إلى الجنوب من جدة عند مصب وادى يسمى وادى المحرم . أخذت جدة فى الازدهار وأصبحت الميناء الرسمى لمكة المكرمة لقربها منها والأقرب من المناطق الجنوبية بشبه الجزيرة العربية خاصة ميناء عدن الذى يوصل جدة بموانى الهند ، ومن جهة ثانية قربها من موانى مصر كعيذاب وقوص اللذين ازدهرا فى العصر الفاطمى وأسهما بشدة فى التجارة الدولية آنذاك (٤٥) .

فقد أسهم ميناء جدة فى التجارة الدولية بين مكة وجنوب شرق آسيا ، فكما يتضح من الشكل رقم (٤) أسهم ميناء جدة فى التجارة الدولية عن طريق ميناء عدن - وعدن من الموانى القديمة - ولكن ازدهارها بدأ فى عهد الأسرة الزيادية حين تحولت تجارة الشرق من الخليج العربى حيث " كان الطريق من الخليج العربى فبلاد الرافدين ثم البحر الأحمر" فعادت ثانية حركة التجارة إلى البحر الحمر ، فقد كانت التجارة قبل ذلك مزدهرة فى البحر الأحمر فى صدر الإسلام وفى العصر الأموى ، وعندما قامت الخلافة العباسية ببغداد عمل العباسيون على تحويل التجارة إلى الخليج العربى فأصاب التجارة فى البحر الأحمر شئ من الركود ، وعندما شبت فتنة الزنج ثم القرامطة فيما بعد كسدت التجارة فى الخليج العربى وتحولت إلى البحر الحمر (٤٦) . ومنذ ذلك الحين أصبحت عدن محط رحال التجار ، وأهم موانى العالم بسبب ما كان يرد عليها من المراكب الواصلة من الحجاز والهند والصين والحبشة ، على ان تجارتها مع الهند والصين بلغت الذروة ، فوصفت بأنها "دهليز الصين" فقد كانت مستقبلة للسفن القادمة من الهند والصين وعن طريقها تتجه إلى جدة ومنها إلى مكة المكرمة (٤٧) .

وقد أسهم ميناء جدة فى التجارة عبر الرحلات بين مكة المكرمة من جهة ومصر وأوروبا والشام من جهة أخرى ، فقد كان لموقع جدة المتوسط وقربها من مكة ، حيث تقوم سوق نشطة فى موسم الحج والاعتماد اكبر الأثر فى أن تقوم على تجارة عريضة فى الموانى العالمية فى

حوض البحر المتوسط ، كما يتضح من طرق التجارة في شكل رقم (٤) ، فقد كانت البضائع تجلب من الموانئ الأوروبية متجهة إلى الإسكندرية والفرما (بور سعيد حالياً) ، ثم منها إلى الحجاز ، وكانت الفرما حلقة اتصال بين موانئ البحر المتوسط والبحر الأحمر (محطة لتجار أوروبا وسورية) وكانت البضائع تحمل منها على الجمال إلى القلزم (السويس حالياً) ومنها إلى جدة وغيرها من موانئ الشرق (٤٨) .

واستطاعت جدة أن تجذب التجارة الأندلسية والأوروبية وتجارة شمال إفريقيا ، إذ إن التجار القادمين من المغرب والأندلس اعتادوا بيع متاجرهم من الحرير والنحاس وغير ذلك من منسوجات بلادهم ، في المدن الشامية والمصرية ، ولكن إذا حدث ولم يصادف هؤلاء التجار نجاحات تجارية لبضائعهم اتجهوا بمتاجرهم إلى ميناء جدة حيث يجدون سوقاً لتجارتهم .



كانت القلزم من أهم الموانئ المصرية ذات الصلة التجارية مع ميناء جدة والتي ازدهرت مع الفتح الإسلامي وأصبحت ميناء مصر الرئيسى على البحر الأحمر ، وقد ساعد إعادة حفر خليج أمير المؤمنين الواصل بين الفسطاط والقلزم - النيل وخليج السويس - على زيادة أهمية هذا الميناء نظراً للوصل بين مصر والحجاز (٤٩) . وكانت الفسطاط عاصمة مصر من أهم المدن التجارية آنذاك ، وكان لها نفوذ سياسى شبه رسمى على مكة فى عهد الإخشيديين فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى ، ومنها كانت ترد المؤن والإعانة إلى مكة المكرمة . وقامت فى عهد الفاطميين مراكز جديدة كانت ذات تجارة عريضة مع ميناء جدة ، ولعل فى مقدمة هذه المراكز ميناء عيذاب ، فقد لعب هذا الميناء المواجه لجدة دوراً هاماً فى تجارة بلاد الحجاز واليمن ، وقد كان ميناء عيذاب يستخدم فى السفر إلى مكة والحجاز قبل العهد الفاطمى ولكن بدرجة محدودة ، غير أنها لم تلبث أن أخذت تجذب المتاجر والحجاج بكثرة فى القرن الخامس الهجرى ، وقد ساعدها على هذا عدة عوامل من أهمها عمق وغزارة مياهها فضلاً عن خلوها من الشعاب المرجانية ، التى كان يمتلأ بها البحر الأحمر ، هذا إلى جانب قربها من جدة بحيث لا تستغرق المسافة بينهما أكثر من يوم وليلة بالريح الطيبة (٥٠) .

وبلغ ميناء عيذاب درجة كبيرة من الازدهار فى العصر الفاطمى ، وشهد تجارة مع جدة لفترة طويلة فظلت مسلكاً للتجارة والحجاج فى ذهابهم وإيابهم ما يزيد على مائتى عام منذ منتصف القرن الخامس حتى منتصف القرن السابع ، وقد أدى قرب عيذاب من جدة إلى أن الغلات الآتية من الحبشة وساحل إفريقيا واليمن والهند وما بعدها تصل إلى عدن إذ هى نقطة ابتداء البحر الأحمر ، ثم تنقل منها إلى جدة ، ومن جدة تحمل هذه البضائع إلى عيذاب ،

واشتهرت إلى جانب عيذاب مراكز تجارية إخرى فى مصر كانت ذات صلات تجارية بالحجاز نذكر منها القصير وققط وقوص ، وقد عظمت هذه الأخيرة فصارت ملتقى القوافل من الحبشة والحجاز وازدهرت الحركة بها من الحجاج والتجار المتجهين إلى جدة ومكة (٥١) .

* أما عن ميناء السرين : فهو ميناء قديم غير معروف مكانه الآن بالتحديد وإن حدده البعض كما هو فى الشكل رقم (١) ، الآن ذلك الميناء كان يخدم حالة مكة التجارية ، وكان بمثابة الميناء الداخلى لمكة المكرمة عن طريقه يتم تموين الشقة الجنوبية لإمارة مكة بالتجارة والأرزاق (٥٢) .

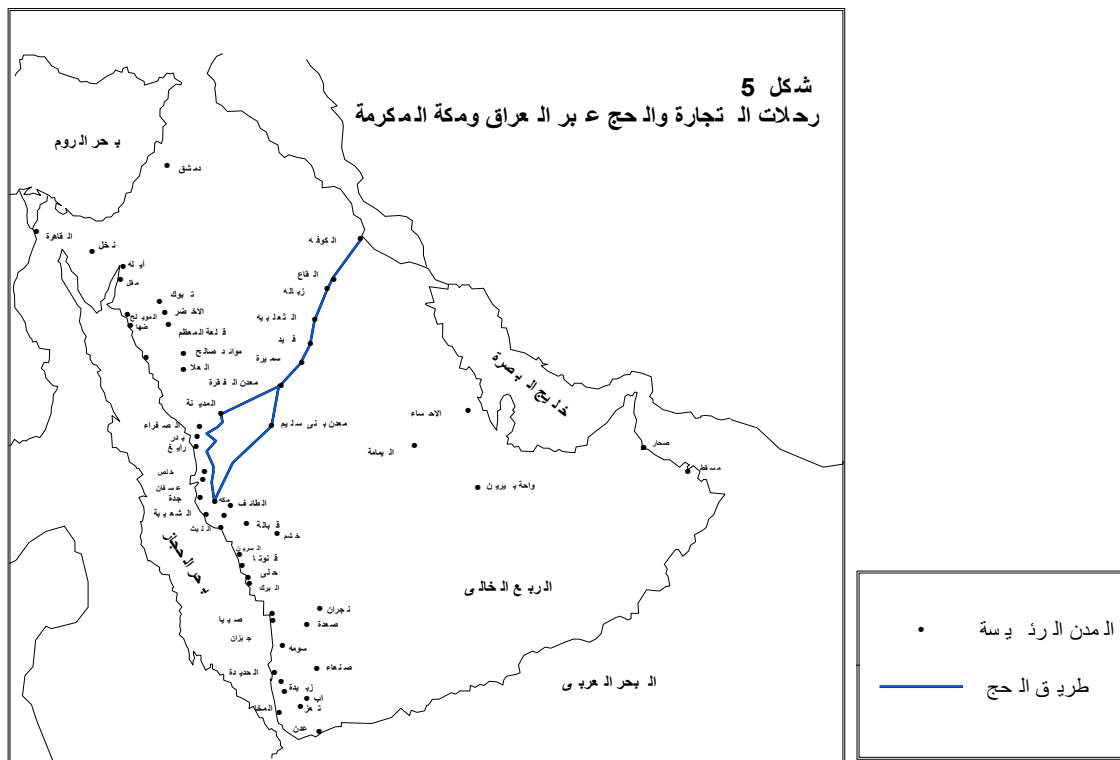
* ثانياً : الرحلات البرية :

كانت مكة مقصداً للرحالين من أرجاء العالم الإسلامى قاطبة ، وكانت الرحلات البرية إلى مكة تكاد تكون مرتبطة برحلات الحج ذات الدروب المعروفة والمدروسة والمؤمنة والتي تسلكها قوافل الحجاج من العراق ومصر والشام واليمن ، حيث تأتى رحلات الحج من العواصم ذات العلاقة والتأثير السياسى فى تاريخ مكة حينذاك ، هذا فضلاً عن أن قوافل الحج التى ترد منها كانت أكبر من تلك التى ترد من المواقع الأخرى من حيث عددها وانتظامها (٥٣)

أ- الطريق العراقى :

وهى تعد القافلة الرسمية التى كانت ترعاها الخلافة العباسية ، وحيث ترد معها القافلة السلطانية ، وتبدأ الرحلة بعد أن يلتئم شملها ويكتمل جمعها من بغداد العاصمة ، وتصل إلى الكوفة ، كما هو واضح فى الشكل رقم (٥) . لتبدأ الرحلة إلى مكة ، بعد ان تقطع ثلاث مراحل من بغداد ، ثم تخرج من الكوفة تجاه الحجاز فتسير من منازل عامرة ومناهل قائمة فيها قصور لخلفاء بنى هشام (٥٤) . فأول هذه المنازل القادسية ثم المغيضية ثم الفرعا ثم واقصة ثم العقبة ثم القاع ثم تسير بعد ذلك حتى تصل زباله (وكانت زباله قرية عامرة تشتهر بكثرة آبارها ومياهها) (٥٥) . ثم تأخذ القافلة فى السير منها إلى الشقوق ثم بطان ثم الثعلبية (المدينة ذات الأسوار) ثم زرود ثم فيد التى تقع على منتصف الطريق بين مكة وبغداد ، وفيها كان ينزل عمال طريق مكة ، وكان الحجاج يودعون ما ثقل عليهم من أزوادهم وأمتعتهم عند أهلها ، فإذا عادوا أخذوا ما أودعوه بعد أن يدفعوا لهم شيئاً من ذلك ، وكان أهلها يتعاونون مع الحجاج ويقدمون لهم كثيراً من وسائل الراحة والإغاثة ، خاصة وأن هذا المكان منفرد منقطع

عن العمران (٥٦) . وتتجه القافلة من فيد وتواصل سيرها إلى توز وهي على مسافة ٣٠٨ ميلاً من الكوفة ، ثم تتجه القافلة إلى سميرا فالحاجر ثم النقرة التي عندها مفرق الطريق إلى طريقين أحدهما يتجه إلى المدينة المنورة والثاني يتجه إلى مكة المكرمة (٥٧) . وفي الأغلب الأعم يذهب الركب العراقي إلى مكة لتأدية فريضة الحج ثم يعطف بعد ذلك إلى المدينة المنورة ، لذلك فهو يأخذ في السير من النقرة على طريق مكة إلى مغيثة ثم إلى الربذة ، ومنها يجتاز بعض المحطات الصغيرة إلى ذات عرق ، وهي ميقات أهل العراق



(فيتم عندها الإحرام) ثم يواصلون السير إلى بستان ابن عامر ، ومنه إلى مكة المكرمة (٥٨) . وتجدر الإشارة إلى أن الطريق من العراق إلى مكة لم يكن سهلاً وآمناً من الأخطار ، ولكن كان هناك العديد من المخاطر مثل "حركة القرامطة" الناتجة عن الحنق من بنى العباس ذوى اللهو والمجون ، حيث الخروج على قوافل الحجيج والفتك بهم ، وكان خروج القرامطة وفتكهم بقوافل الحاج العراقى وحصولهم على ضريبة سنوية من الحجاج والخلافة بادرة سيئة ، سارت على نهجها كثير من القبائل العربية المقيمة على طول الطريق ، سواء من حيث إنزال الكوارث بالحجاج أو مطالبتهم بدفع الضرائب والمكوس ، فقد حدث أن قبيلة بنى هلال ، وهى من القبائل الكبرى فى الجزيرة العربية اعترضت ركب الحجيج سنة ٣٦١هـ ونهبته وقتلت عدداً كبيراً من الحجاج (٥٩) . كما كان الحجاج فى أوقات الأمن والسلامة من خطر القبائل يعانون الشدائد المخيفة بسبب العوامل الطبيعية المختلفة التى تودى بحياة الآلاف من الحجاج ، مثل هبوب الرياح العاتية ولاسيما فى أشهر الصيف ففى سنة ٣٩٧هـ ثارت على الحجاج فى الثعلبية ريح سوداء أظلم لها الجو ، فلم ير الحجاج بعضهم بعضاً ، وأصابهم لذلك عطش شديد فاضطروا تحت وطأة هذه الظروف إلى العودة دون أن يحجوا ، ثم تكررت هذه الظروف مرات عدة ، ففى ذى الحجة سنة ٤٠٢هـ هاجت ريح سوداء فى زباله ، وفقدوا الماء فهلك منهم خلق كثير وبلغت المزادة من الماء مائة درهم ، ولم يستطيع من بقى منهم العودة إلا تحت خفارة بنى خفاجة (٦٠) . ومن مثل هذه الحوادث أن الحجاج العراقيين نزلوا بواد بعد نخلة سنة ٤٨٩هـ ، فأتاهم سيل عظيم فأغرق أكثرهم ، ونجا من تعلق بالجبال وذهب المال والدواب والأزواد وغير ذلك (٦١) .

ورغم ما سبق ، فقد اهتم الخلفاء بالطرق التى كان يسلكها الحجاج لأغراض الدعاية السياسية ، فعملوا على إزالة العقبات ووضع العلامات وحفر الآبار وإقامة مصانع المياه ، وصرف نفقات باهظة للقبائل المتربصة بالحجيج على طول الطريق إلى مكة المكرمة . فاهتمت

الدولة العباسية بذلك الأمر ، حتى أن أمر هذا الطريق كان فى بداية القرن الرابع الهجرى ولاية تضاف إلى امير الكوفة ، وكان يمثل هذا الأمير فى ولاية طريق الحج عمال يقيمون فى بعض المراكز الهامة على طول الطريق (٦٢) . بل كانت بعض الشخصيات من الأمراء وغيرهم يسهمون فى هذا الميدان الخيرى ، فقد حمل بدر بن حسنوية أمير الجبل ابتداء من سنة ٣٨٥هـ إلى الأصفى الأعرابى مبلغ خمسة آلاف دينار عوضاً عما كان يأخذه من الحجاج بفعل السطو ، ومع زيادة نفوذ السلاجقة فى الدولة العباسية أخذ الوزير التقى نظام الملك على عاتقه الاهتمام بإعادة تيسير الحج إلى مكة ، وكان قد انقطع منذ سنوات عديدة ، فعمل على فتح طريق الحج العراقى وقام بتعميره فاستقام لذلك أمر الحجيج (٦٣) .

ب- الطريق المصرى :

كان الخروج للقافلة المصرية إلى مكة عن طريق البر فى موسم الحج يسبقه النداء الذى محتواه "يا معشر المسلمين ، حل موسم الحج ، وسيجهز ركب السلطان كالمعتاد وسيكون معه الجنود والخيول والجمال والزاد" وهذا النداء كان يتم فى شهر رمضان فى عهد ناصر خسرو ، أما فى رأى المقرئى فكان ينادى بذلك فى شهر رجب ، وبعد أن يستكمل الحجاج استعداداتهم يبدأون السفر من القاهرة فى أول ذى القعدة فينزلون فى بركة الحاج (وتسمى أيضاً بركة الجب أو جب عميرة . وهى قرية تقع فى الشمال الشرقى للقاهرة بنحو خمس ساعات ، وفى غرب الترعة الإسماعيلية بنحو ستة آلاف متر ، وفى جنوب الخانقاه) (٦٤) .

ويقيمون فيها إقامة قصيرة ، ثم يتحرك ركبهم إلى البويب ، ومنها إلى عجرود ، ثم يستمر الركب فى رحلة التفاف حول البحر حتى يصل حقل ، ومنها يقطع مراحل متعددة إلى أن ينزل الوجه ، وهو بلد شحيح الماء مما يسبب عناءً كبيراً للحجاج ، ثم يسير عدة مراحل حتى تصل ينبع ، حيث يقيم الحجاج فيها ثلاثة أيام ، وهناك يودعون ما ثقل عليهم من أمتعتهم حتى يعودوا ، كما يشترى منها حاجاتهم مما يصل إليها من المنتجات المصرية عن طريق بحر القلزم والبحر الأحمر ثم يتحرك الركب من ينبع فيترك عدة منازل صغيرة حتى يصل بدر فراغ فغليص فبطن مر وأخيراً يدخل مكة المكرمة كما يوضح الشكل رقم (٦) وقد اختلف فى المدة التى يقطعها الركب المصرى إلى مكة فمنهم من حددها بخمسة وعشرين يوماً (٦٥) .

ولم يكن طريق الحجيج المصرى إلى مكة بأحسن حالاً من الطريق العراقى فى صعوبة اجتيازه ، فقد كانت تعترضه الكثير من الصعوبات والأخطار من وقت إلى آخر ، ويعد ما حدث

فى أواخر سنة ٣٥٤هـ كان قمة تلك الكوارث التى تنزل بالحجاج وتعطل الحج إلى مكة المكرمة ، فقد قطع بنو سليم الطريق على قافلة المغرب والشام ومصر الحاجة إلى مكة المكرمة ؛ فقد كانت قافلة عظيمة ضمت إلى جانب الحجاج كثيراً من التجار القادمين من الشام هرباً من الروم ، وكانوا قد خرجوا بأموالهم وأهليهم وقصدوا مكة ليسيروا منها إلى

العراق ، فتمكن بنو سليم من اعتراضهم وقتلوا الكثير منهم ، واستولوا على جميع أمتعتهم أموالهم وعاد من بقى من الناس إلى مصر والشام . وهذه الحادثة كانت من الشدة والقسوة بحيث شبهها البعض بتلك التي أحدثها القرامطة بحجاج العراق وخرسان فى الهبير سنة ٣١٢ هـ (٦٦) .

وفى ظل هذه الظروف لا يمكن إنكار الإهتمام من قبل أولى الأمر فى مصر ، بأمر الحجيج ، فكان الإخشيدون يدفعون للقرامطة مقابل حماية الحجاج فى الطريق المصرى وعدم التعرض لهم ثلاثمائة ألف دينار (٦٧) .

بل أن الفاطميين كانت عليهم تعهدات مالية تجاه قبائل الجزيرة العربية ، وكانت نفقات الجيش المرافق للقافلة السلطانية بلغت "ستين ألف دينار مغربى عدا التعهدات والصلوات والمشاهدات وثمان الجمال التى تنفق فى الطريق" . وكانت عيذاب قد أصبحت مسلكاً للحجاج منذ كانت الشدة العظمى أيام الخليفة المستنصر ، وانقطع الحج عن طريق البر ، حتى يأمنوا طلبات القبائل الفادحة (٦٨) .

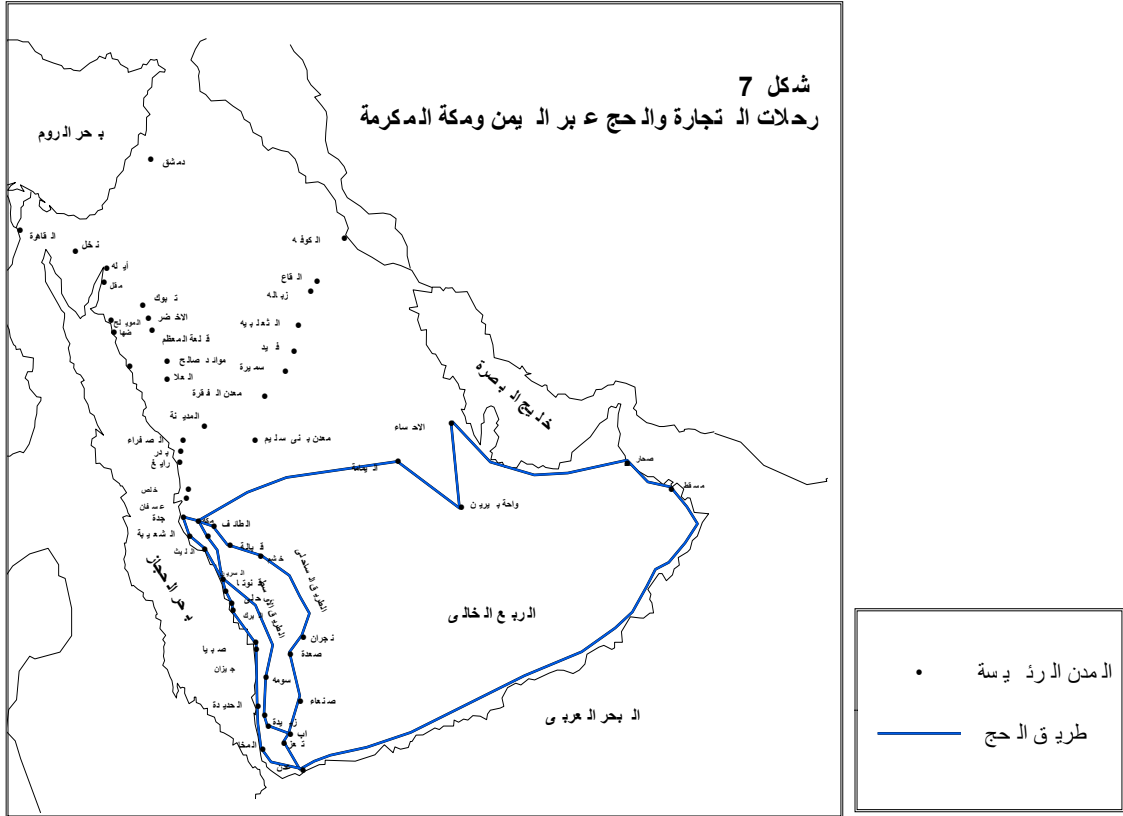
ج- الطريق اليمنى :

يسلك المرتحل اليمنى إلى مكة عدة طرق برية ، أشهرها الطريق العليا ، بداية من صنعاء (كانت صنعاء فى ذلك الوقت عاصمة للدولة الصليحية ، وكان يخرج منها طريق آخر قيلتقى مع الطريق الوسطى عند المهجم ، وهو الطريق الذى سلكه على بن محمد الصليحي سنة ٤٥٩ هـ فى حجته التى قتل فيها على يد ابن نجاح) وتمر القافلة بعد صنعاء بصعدة فنجران فالطائف ثم تنتهى إلى مكة المكرمة كما يتضح من الشكل رقم (٧) .

ثم يليه طريق تهامة ، وهى تفرق إلى طريقين : طريق ساحلية تسير بمحاذاة ساحل البحر الأحمر ، واخرى وهى الجادة السلطانية متوسطة بين الطريق العليا والساحلية .

والطريق الوسطى ، أهم من الطريق الساحلية ، فهى تبدأ من تعز وتمر بزبيد ، وهى إحدى العواصم اليمنية فى ذلك الوقت ، ثم تسير منها قافلة الحج إلى المهجم ، ثم جيزان

فبیش فضنکان فحلی ابن یعقوب ، ومنها ترحل إلى یبة ثم قنونا ثم قرما ، فتأخذ فی السیر حتی تلتقی بالطریق الساحلیة فی السرین ، ومنها تقطع القافلة عدة مراحل حتی تصل



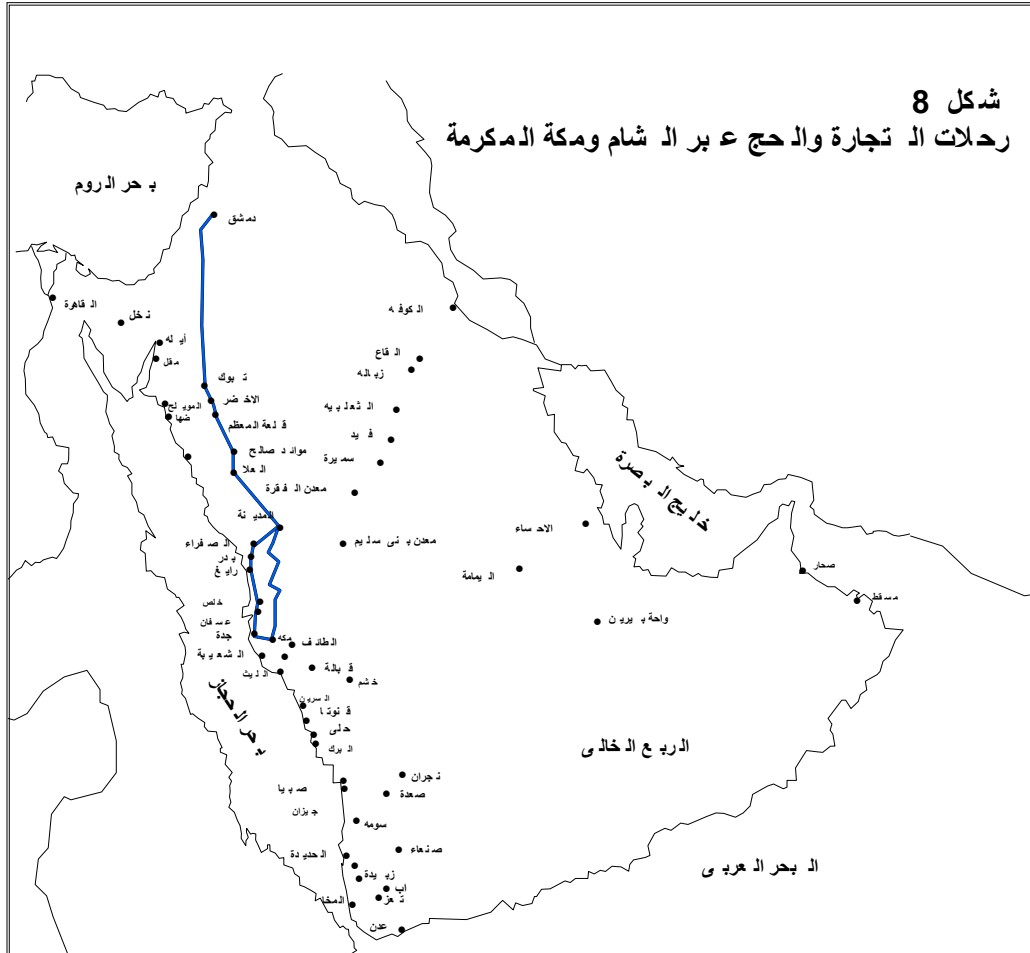
إلى يللمم التي هي ميقات اهل اليمن ، ومنها يهللون بالإحرام ، ثم يواصلون سيرهم حتى يصلوا على مكة المكرمة (٦٩) .

ولم يكن الطريق اليمنى أحسن حالاً من الطريقين السابقين من حيث الصعوبة والخطورة ، فقد تربصت القبائل المسيطرة على هذا الطريق بالحجاج اليمنيين ، وفرضت عليهم الإتاوات الباهظة ، فكان ينوب كل جمل يخرج من مدن اليمن مثل تعز أو زبيد حتى يصل إلى مكة المعظمة مائة درهم سواء كان حاجاً أو تاجراً أو معه شئ أو لا شئ معه ، وكانت قبيلة بنى شعبة التي تسكن جنوب مكة وتنتشر بصورة خاصة فى وادى أوام وما حولها حتى وادى الخضراء ، من أشد القبائل خطورة على الحجاج القادمين من اليمن ، وقد تمادى الشعبيون فى نهب الحجيج ، واعتمدوا من الوجهة الاقتصادية حتى أسموه "جفنة الله" فكانوا يقولون : إذا حضر جفنة الله "الحاج" أكل منه الصادر والوارد وأخذ الشعبيون يعتمدون على الحجاج وينهبونهم فى بعض المشاعر حتى لقد تعذر عليهم المبيت بمنى يوم التروية ، بل أخذوا يتجاوزونها إلى عرفات ، كما كانوا يتعجلون العودة إلى مكة المكرمة من منى فى اليوم الثانى من أيام التشريق ، وحتى بعد انتقالهم إلى منازلهم الجديدة فى درب ملح الذى عرف فيما بعد باسم درب بنى شعبة ، وسلم لذلك الحجاج فى مكة من شرهم ، فإنهم كانوا يسيطرون على جزء من الطريق اليمنى ، والظاهر أنهم اختاروا هذا لممارسة نشاطهم ضد حجاج اليمن بعيداً عن أعين الحكومات القومية التي قامت بمكة فيما بعد (٧٠) .

وفى ظل هذه المخاطر لاقى هذا الطريق اهتمامات عدة من قبل المسئولين ، فقد تولى الحسين بن سلامة الوزير فى بلاط الدولة الزيدية أواخر القرن الرابع الهجرى تأمين طريق الحج اليمنى ، فأنشأ الجوامع الكبار والمنارات الطوال من حزموت إلى مكة ، ولما حج على بن محمد الصليحي سنة ٤٥٥ هـ قام ببعض الإصلاحات فى طريق مكة ، وعمل على تذليل الصعوبات التي كانت تعترض ركب الحجيج ، ولعل فى مقدمة ذلك تأديب القبائل المسيطرة على هذا الطريق ، والتي كثيراً ما تعتدى على الحاج اليمنى (٧١) .

د- الطريق الشامى :

ولعب هذا الطريق دوراً أقل أهمية من ادوار الطرق الأخرى سابقة الذكر ، نظراً لتبعيتها للخلافة الفاطمية ، ويتضح الطريق الشامي كما في الشكل رقم (٨) .. ومركز الطريق الشامي دمشق ، ومنها تبدأ رحلة القوافل إلى مكة ، حيث تجتاز عدة محطات نذكر منها الكسوة ، ثم



درعا فبصرى ، فالكرك ، ثم معان ، فتبوك ، فالعلا ، ومنها إلى هدية ثم عيون حمزة ، ومنها إلى المدينة المنورة والتي منها تتجه الرحلة إلى مكة المكرمة (٧٢) .

النظرة الجغرافية فى رحلة ابن جبير لمكة المكرمة :

كانت مكة المكرمة دائماً فى فكر وقبلة للرحالة العرب والمسلمين على طول الدوام ومن ثم كانت مكة قد استضافت الأغلب الأعم منهم خاصة من خلال رحلات الحج ووفود الحجاج إلى بيت الله الحرام وقد وقع اختيار ابن جبير كنموذج للرحالة والجغرافيين الذين رحلوا إلى مكة وزاروها وكتبوا عنها لأسباب منها :

* الشغف العارم لزيارة مكة من قبل ابن جبير (٧٣) . فيذكر أن حاكم غرناطة اضطره إلى شرب الخمر وكافأه على ذلك بسبعة كؤوس مملوءة بالدنانير ، ومن ثم عزم ابن جبير على أن يحج إلى بيت الله الحرام تكفيراً على خطيئته ، ولذلك نبتت عنده فكرة الرحلة ، وبدأت رحلته من غرناطة بالأندلس فى يوم الخميس الثامن من شهر شوال سنة ٥٧٨ هـ أو الثالث من فبراير (شباط) سنة ١٠٨٢م قاصداً برحلته أداء فريضة الحج المفروضة عليه ، جاء إلى الإسكندرية بجرأ من الشاطئ الغربى للبحر المتوسط ، وأقام بها ووصف معالمها وتحدث عنها كثيراً ، ثم اجتازها إلى القاهرة وأقام بها ، ومنها انتقل على بحر النيل إلى مدينة قوص ، فبرأ إلى ميناء عيذاب الذى امتطى منه سفينة بحرية صوب مدينة جدة ، ودخل مدينة جدة فى عهد الأمير مكث بن عيسى أمير مكة آنذاك ، ووصفها وصفاً شاملاً أصاب فى أكثره (٧٤) . وأقام بعد ذلك بمكة عدة أشهر ورحل للعراق والشام ، ووصل عائداً إلى وطنه فى ٥٨١ هـ ، وخلف ما يسمى (رحلة ابن جبير) واصفاً الأحوال الاجتماعية والاقتصادية والسياسية للمناطق التى قام بزيارتها وصفاً دقيقاً (٧٥) .

* أقام ابن جبير ثمانية اشهر وبضعة أيام بمكة المكرمة ، وتعد هذه المدة التى قضاها ابن جبير بمكة هى أطول إقامة قضاها فى بلد رحل إليها طيلة رحلته ، ولذلك كان ابن جبير على درجة من التمكن فى وصف أشياء وأمور بلد الله الحرام ، ورحل عنها بعد ان أشبع عاطفته الدينية الحارة والمشبوبة من طول المقام بمكة ، واتجه صوب الشمال قاصداً المدينة

المنورة ، وكما كان دخول ابن جبير مكة المكرمة يوم الخميس ١٣ ربيع الآخر سنة ٥٧٩هـ
كان خروجه منها أيضاً إلى المدينة المنورة يوم الخميس ٢٢ ذى الحجة سنة ٥٧٩هـ (٧٦) .

أهم معالم مكة الجغرافية فى وصف ابن جبير :

وصف ابن جبير معالم مكة المختلفة فى العمران والعمارة والأودية والاستهلاك والتجارة
وغيرها من المجالات :

* **ففى مجال العمارة والعمران :** كان أول المشاهد التى وصفها ابن جبير من
مشاهد مكة المكرمة هى الكعبة المشرفة والمسجد الحرام ، فوصف مبانيه وأرضه وأبوابه ومآذنه
وماء زمزم وعن المسجد الحرام فقد نقد ابن جبير الخرافة المتداولة إلى عهد قريب ، وهى أن
عتبات باب السلام من أبواب المسجد الحرام بمكة هى من أصنام قريش التى كانت تعبدها فى
الجاهلية وبينها كبيرها هبل ، فقد نقد ابن جبير هذه الخرافة بقوة وإصرار ، ومن دلائله أن النبى
- صلى الله عليه وسلم - يوم فتح مكة كان قد أمر بتكسير الأصنام وإحراقها ، وجزم بأن هذه
الحجارة المستطيلة الملص الزيتونية اللون التى هى من عتبات باب السلام هى منقولة إليه من
جبال مكة وإنما شبهها القوم بالأصنام لعظمتها (٧٧) .

* **وصف جبال وأودية مكة :** وصف ابن جبير جبال مكة وأوديتها ، وعدد جبال
مكة المأثورة ، ومما عنى بوصفه من جبال مكة المأثورة ، جبلا أبى قبيس وحراء ، وعن حراء
قال : أن الرسول - صلى الله عليه وسلم قال : وهو على ظهره : اسكن فما عليك إلا نبى
وصديق وشهيدان ، وذكر ابن جبير من آثار مكة دار الخيزران ، والتى كانت تعرف فى صدر
الإسلام بدار الأرقم بن أبى الأرقم والتى تقع قرب سفح جبل الصفا بمكة (٧٨) .

وقد أمعن ابن جبير النظر والصف لأودية مكة ، مثل وادى بطن مر ، فقال عنه أنه يقع
إلى الشمال من مكة بمسافة ستة عشرة ميلاً ، وهو واد خصيب كثير النخل ذو عين فوارة سيالة
الماء ، تسقى منها الأراضى الزراعية الواقعة فى تلك المنطقة ، وتقع على هذا الوادى قرى
كثيرة وعيون غزيرة ، من أشهرها عين البرقة ، التى عرفت المنطقة باسمها وهى مقر الأمير
شكر بن ابى الفتوح ، أمير مكة آنذاك مع جيش خاص به .

وتجاور بطن مرعدة أودية ومناطق زراعية كعسفان والبرزة وكلية وخليص ، وجميعها
تشتهر بزراعة الخضار والحبوب والنخيل ، حيث كانت بمثابة الظهير الزراعى لمكة المكرمة ،
وكان لبعض المكيين مزارع بالقرب من مكة المكرمة تروى بماء العيون كعين سليمان وغيرها ،

وكانت هذه المزارع تنتج مختلف الحاصلات الزراعية وقد عمل المكيون على استقدام عمال من المغاربة من ذوى البصارة بالفلاحة والزراعة ، فاستطاعوا أن ينهضوا بالزراعة فيها وان يحدثوا بها كثيراً من البساتين والمزارع "فكانوا أحد الأسباب فى خصب هذه الجهات" (٧٩) .

* ووصف ابن جبير صفات الناس وطبائعهم : فقد شاهد ابن جبير طائفة من أهل جبال السراة يقدمون إلى مكة فى موسم الحج ومعهم قوافل الأرزاق والفواكه والشمل (نوع من العبي منسوج من الصوف الثقيل) فأبدى سروره وإعجابه بذلك . ووصف هؤلاء القوم البسطاء كما شاهدهم ، كما وصفهم بالشجاعة والنجدة والمروءة . وكان فقيه من فقهاء اليمن قد حدث ابن جبير عن هؤلاء القوم السرويين المائرين لمكة ، بأنهم ينسبون إلى سراة الرجال ، وهو قول يجانبه الصواب فإن هؤلاء القوم إنما ينسبون إلى "السراة" وهى سلسلة الجبال الممتدة من جنوب المملكة العربية السعودية إلى الشمال والمعروفة من قديم باللغة العربية بهذا الاسم التاريخى الشهير (٨٠) .

* وصف ابن جبير لأسواق بمكة : يقول : فكان السوق حول الحرم يمتد فى معظمه على جانبي المسعى من الصفا إلى المروة ، وما يسمى السعى بين الصفا والمروة هو السعى فى هذه السوق من أولها لآخرها .

وفى أيام المواسم ، فيغدو المسجد الحرام كله سوقاً يُباع فيه من الدقيق إلى العقيق ومن البر إلى الدر إلى غير ذلك من السلع ، فكان مبيع الدقيق بدار الندوة إلى جهة بنى شيبة ، وتباع بقية الأشياء حول الحرم فى البلاط الآخذ من الغرب إلى الشرق ، وفى البلاط الآخذ من الشمال إلى الجنوب .

كما كان سوق آخر يعمر فى أيام الموسم بالأخص فى أيام التشريق ، وهو سوق منى ، حيث تقع منى على بعد فرسخ من مكة ، وهى جزء من الحرم ، طولها ميلان ، وهى تعمر فى الموسم وتخلو بقية السنة ، وهى عبارة عن أزقة ضيقة والمسجد فى الشارع الأيمن ومسجد الكبش بقرب العقبة وبها آبار ومصانع وقياسير بينهما ، وكان بمنى حوانيت حسنة البناء قد بنيت بالحجر وخشب الساج ، ومنى فى تلك الأيام الثلاثة سوق من أعظم الأسواق يباع فيها من الجواهر النفيس إلى أدنى الخرز إلى غير ذلك من الأمتعة وسائر سلع الدنيا لأنها مجتمع أهل الآفاق (٨١) . وتجدر الإشارة فى هذا الأمر إلى أنه حينما شاهد ابن جبير الناس يجعلون من المسجد الحرام بمكة سوقاً تجارية للبيع والشراء ، غضب وصب جام غضبه على هذا

الصنيع الذي لا يتفق مع الشرع الحنيف ، فالمساجد تبنى لعبادة الله وحده ، وأما البيع والشراء فمحلها الأسواق خارج محيط المساجد المقدسة (٨٢) .

* رأى ابن جبير فى خبر المكوس : كانت تطلق على ضريبة المكس على الجباية أو ما يأخذه العشار ، ويقال له الماكس وفكرة فرض المكوس قديمة وقد أبطل الإسلام المكس بأنواعه ، فقد جاء فى الحديث (لا يدخل الجنة صاحب مكس) (٨٣) . ثم فرضت الزكاة عوضاً عنه ، إلا أن المكوس عرفت بمكة منذ مطلع القرن الرابع الهجرى ، على أن أقدم إشارة صريحة عن جباية المكوس من الحجاج كانت فى سنة ٣٢٧هـ (٨٤) . كما أن هذا المكس لم يلبس أن تضاعف فى عهد الأمير محمد بن ابى هاشم أمير مكة ، فقد كان يؤخذ على كل حمل جمل يجتاز القرين مبلغ دينار علوية وفى ظل هذه الظروف قد صب ابن جبير جام غضبه على أمير مكة وطالب بإيقاف ما كان يأخذه من الحجاج بالقوة بل وإبعاده عن إمارة مكة قائلاً : "فأحق بلاد الله بأن يطهرها السيف ويغسل أرجاسها وأدناسها بالدماء المسفوكة فى سبيل هذه البلاد الحجازية لما هم عليه من حل عرى الإسلام واستحلال أموال الحجاج ودمائهم"

* قول ابن جبير فى خيرات وموارد مكة : جاء فى رحلة ابن جبير تحت عنوان "ما اختص الله تعالى به مكة" لتبيان ما تضمنه هذا البلد من خيرات فقال عن مكة : إنها ملتقى الصادر والوارد ممن بلغته الدعوة المباركة ، والثمرات تجبى إليها من كل مكان ، فهى أكثر البلاد نعماً وفواكه ومنافع ومرافق ومتاجر . وبمقارنة ما وجده ابن جبير فى مكة بما ظن أن الأندلس اختلفت به من الوان الفاكهة وأنواع الأطعمة . ذكر يقول : وأما الأرزاق والفواكه وسائر الطيبات ، فكنا نظن أن الأندلس اختلفت من ذلك بحظ له المزية على سائر حظوظ البلاد حتى حللنا بهذه البلاد المباركة فألقيناها تغص بالنعيم والفواكه كالتين والعنب والرمان والسفرجل والخوخ والأترج والجوز والمقل والبطيخ والقثاء والخيار ، إلى جميع البقول كلها : كالباذنجان واليقطين والسلجم والجزر والكرنب ، إلى سائرها ، إلى غير ذلك من الرياحين العبقة والمشمومات العطرة ، وأكثر هذه البقول كالباذنجان والقثاء والبطيخ لا يكاد ينقطع مع طول العام وذلك من عجب ما شاهدناه مما يطول تعداداه وذكره ، ولكل نوع من هذه الأنواع فضيلة موجودة فى حاسة الذوق يفضل بها نوعها فى سائر البلاد ، فالعجب من ذلك يطول فقد ربط ابن جبير الانتعاش الاقتصادى ووجود الخيرات الكثيرة فى مدينة مكة بالتجارة وما يرد إليها من أماكن قريبة كالتائف ، وهى على مسيرة ثلاثة أيام منها ، أو من بقاع بعيدة كاليمن والشام ،

ويقول ابن جبیر : وبركة البلد الأمين قد تكفلت بطيبة لا شك فيه والخبر عنه يضيق عن الخبر له ، والله يجعل فيه رزقاً لمن تشوق ببلدته الحرام ، وتمنى هذه المشاهد العظام ، والمناسك الركام بعزته وقدرته ، وذكر ابن جبیر أوصاف الحياة الرعدة فى مكة المكرمة فى سنة زيارته لها " وتميزها عما سلف من السنين حتى لقد زعموا أن ماء زمزم المبارك زاد عذوبة ولم يكن قبل بصادقها" وقال ابن جبیر : ومن صنع الله الجميل وفضله العميم علينا أنا وصلنا إلى هذه البلدة المكرمة فألفينا كل من بها من الحجاج المجاورين ممن قدم عهده فيها ، وطال مقامه بها يتحدث على جهة العجب بأمنها من الحرارة المتلصقين فيها على الحجاج ، المختلسين ما بأيديهم ، والذين كانوا آفة الحرم الشريف ، لا يفغل أحد عن متاعه طرفة عين إلا اختلس من يديه ، أو من وسطه بحيل عجيبة ولطافة غريبة ، فما منهم إلا أخذ يد القميص ، فكفا الله هذا العام شرهم إلا القليل ، وأظهر أمير البلد التشديد عليهم فتوقف شرهم ، وبطيب هوائها فى هذا العام ، وفتور حمارة قيظها المعهود فيها ، وانكسار حدة سمومها ، وكنا نبیت فى سطح الموضع الذى كنا نسكنه فربما يصيبنا من برد هواء الليل ما نحتاج معه إلى دثار يقينا منه . وذلك أمر مستغرب بمكة . ومن بين الأشياء الأخرى التى استدعت الانتباه فيما ورد من قول ابن جبیر فى هذا المقام مسألة العمالة الوافدة إلى مكة وغيرها من البلاد الحجازية نتاج الزرع والمأكّل والمشرب . كتب ابن جبیر يقول : وأنواع اللبن بها فى نهاية من الطيب ، وكل ما يصنع منها من السمن ، فإنه لا تكاد تميزه من العسل طيباً ولذاذة ، ويجلب إليها قوماً من اليمن يعرفون بالسرو نوعاً من الزبيب الأسود والأحمر فى نهاية الطيب ، ويجلبون معه من اللوز كثيراً (٨٥).

وفى الختام يجب التنويه إلى ما يلى :

* * يعد الفكر الجغرافى قديم قدم الإنسان ، وتاريخ البشرية أيام ودول ، وكم سادت حضارات ثم تراجعت ، فى وقت لا ينبغى لحضارة أن تقوم إلا على تراث الأخرى ، والحضارة العربية قد ازدهرت وزهت فى حضان الإسلام وانتشاره فى ربوع العالم ، ومن ثم فقد أخذ الفكر الجغرافى للعرب والمسلمين من روافد أفكار الهنود والفرس والإغريق بل ومن البابليين أنفسهم ، ولكن عندما أخذ العرب المسلمون من أفكار السابقين ما يفيد وأبدعوا وأضافوا إليه ما هو نافع للبشرية جمعاء ، وذلك فى وقت اتسعت فيه الدولة الإسلامية فى مشارق الأرض ومغاربها ، وكانت مكة المكرمة بطبيعة الحال فى قلب هذا العالم الإسلامى وفى قلب وفكر الرحالين والجغرافيين العرب والمسلمين .

* * اجتمعت عوامل عديدة جعلت مكة المكرمة فى بؤرة التفكير عند الرحالين والجغرافيين العرب والمسلمين ، فقد اختص الله تعالى مكة برهبانية وقدسية ربانية كما ورد ذلك فى كتابه العزيز ، وكانت مكة قراراً لبيت الله الحرام والكعبة المشرفة ، قبله المسلمين ووجهتهم مع اتساع الدولة الإسلامية وازدهار حضارتها فى الشرق والغرب كما اختصت مكة فى أفكار علماء كثيرين بأنها ذات مركزية هامة فى جغرافية هذا العالم الفسيح ، وقد تم إثبات هذا الأمر من قبل المعتدلين فى زهاء الحضارة الإسلامية والمحدثين المنصفين على حد سواء ، وكان لمكة المكرمة موقعاً وموضعاً حضارياً ربط مكة بحضارات قديمة من خلال صلات واتصالات كانت معروفة ولا تزال .

* * شهدت مكة رحلات الرحالين والجغرافيين العرب والمسلمين من كافة الأرجاء والأنحاء من العالم القديم عبر طريق البحر فازدهرت جدة كأهم ميناء يعمل لصالح مكة المكرمة والذى كان ملتقى الطرق الملاحية البحرية بداية من أوروبا مروراً بالموانئ المصرية على البحر المتوسط حتى جدة ومكة أو من أقاصى الشرق من موانئ الصين الشرقية مروراً بالمحيط الهندى والبحر العربى والبحر الأحمر وصولاً لجدة حتى مكة المكرمة ، هذا ناهيك عن الطرق البرية والدروب المعروفة والعامرة من جنوب مكة حيث اليمن وشمالها حيث الشام ومصر وشمالها الشرقى حيث العراق والتى هى ملتقى قوافل فارس والشرق قاطبة .

* * والآن لا سبيل بالنهوض بالفكر الجغرافى إلا إذا نهض الفكر الإسلامى وإلا إذا اتحدت أمصار الأمة وأرجاؤها كما كان فى عصر مجدها وقوتها ، عندئذ تتنوع الأفكار وتتلاحم وتزيد الإمكانيات والموارد ، وذلك أمر طبيعى للأمة الإسلامية لا بد لها أن تتكتل ولا مناص من ذلك . فقال تعالى : {إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ} (٨٦) .. وإذا كانت الأمة قد تعددت

أنظمتها واتجاهاتها فليس أقل من اتحاد الهيئات العلمية والمعنية المتخصصة على مستوى العالم الإسلامي أجمع . وأرى من وجهة النظر الشخصية أن تركز هذه الهيئات على النقاط التالية :

١- علاج علماء المسلمين ومثقفهم من الروح الانهزامية لديهم والتي يدعمها كل حين وآن أعداء الأمة أولئك الذين نعرف عنهم ولا نعرف عنهم أيضاً .

٢- الحفاظ على علماء المسلمين من التسرب والهجرة بلا نفع أو فائدة للمسلمين ، فقد عانت هذه البلاد من هجرة الكفاءات العلمية عالية التأهيل خاصة بعد الحرب العالمية الثانية ، ولم يلق نزييف العقول "Brain Drain" اهتماماً دولياً كبيراً إلا في نهاية الستينيات والسبعينيات الأولى ، بعد أن بدأت بلدان غربية مصنعة كإنجلترا تفقد بعض كفاءاتها لدول غربية أخرى (٨٧) .

ويكفينا في هذا الصدد الإشارة إلى تقديرات - أنطون زحلان - من أن هجرة الأطباء والمهندسين والعلماء العرب إلى أوروبا الغربية والولايات المتحدة الأمريكية وصلت حتى عام ١٩٧٦ إلى حوالي ٢٤ ألف طبيب و ١٧ ألف مهندس و ٧٥ ألف مشتغل بالعلوم الطبيعية يمثلون ٥٠٪ ، ٢٣٪ ، ١٥٪ على الترتيب من جملة هذه الفئات المهنية بالوطن العربي (٨٨) . وعند نهاية القرن العشرين وجد أن حوالي مليون مهني عربي أو أكثر يعملون في بلدان منظمة التعاون الاقتصادي للتنمية وهو تقدير يؤشر على تصاعد هجرة الكفاءات في الربع الأخير من القرن العشرين (٨٩) .

وينجم عن هجرة فرد ما خسارة أولية لبلد الأصل تتمثل في التكلفة التاريخية التي تكبدها المجتمع في تكوين وتعليم المهاجر مباشرة أو بطريق غير مباشر ، حتى وقت الهجرة ، وبالطبع يقابل التكلفة التاريخية لبلد الأصل ، حصول بلد المهجر على مكسب أولى يعادل التكلفة التي كان سيتكدها لو كان المهاجر إليه قد تكون أساساً داخل حدوده ، ولا يتساوى هذا المكسب بالضرورة مع التكلفة التاريخية للمهاجر في بلد الأصل ، وقد قدر بعض الباحثين أن ألمانيا الغربية مثلاً قد وفرت في نفقات تربية الأطفال والتعليم التي كان يمكن أن تتحملها للحصول على عدد العمال المهاجرين نفسه ، والذي حصلت عليه في الفترة ٥٧ - ١٩٧٣ ، مبلغاً يكفي لأن يتحول في ١٩٧٣ إلى ما يزيد عن ٢٧ مليار مارك ، أو أكثر من واحد بالمائة من جملة رأس المال القومي حينئذ (٩٠) .

كما أن للتكلفة التاريخية بعداً اجتماعياً ، فلما كانت بلدان الأصل الفقيرة ، والتعليم العالى بها ميزة لا يحصل عليها إلا نخبة ، وهى عادة الأقدر مالياً ، لا تتحمل إلا نسبة ضئيلة من تكلفة التعليم العالى ، فإن التكلفة المجتمعية لتعليم الكفاءات المهاجرة تقع فى الحقيقة على كاهل الغالبية الفقيرة التى لم تنل حظ هذه الكفاءات نفسه من التعليم (٩١) .

وتجدر الإشارة إلى أن الشعوب العربية والإسلامية ليس فى استطاعتها اختراق المحظور الأوروبى والأمريكى وكوريا الجنوبية أو اليابان أو الصين أو إسرائيل مثلاً ، إذ اعتمدت إسرائيل على توظيف الشتات لديها بصورة فائقة ، واعتبار يهود العالم خارج إسرائيل رصيماً احتياطياً ضخماً تستفيد منه بأشكال مختلفة بدءاً بالتمويل والضغط على مراكز صنع القرار فى بلادهم ، والمشاركة فى العمل التطوعى داخل إسرائيل بما فى ذلك القتال المسلح عند الحاجة الماسة الجادة التطوعية فى بناء المجتمع الإسرائيلى ، خاصة مؤسساته العلمية ، وانتهاءً بالنزوح للاستقرار فى "أرض الميعاد" (٩٢) فكل يهودى حسب "قانون العودة" مواطن إسرائيلى بالقوة ، فى المقابل تندر أنماط السلوك هذه فى الحالة العربية ، بل إن أرادت الكفاءات العربية أن تنهل من إمكانيات التفوق فى الغرب ، فسرعان ما تنزع عنها جلد سياسى يكون قد علق بها فى موطنها الأسمى ، ولا مناص من أن تقوم بين أقطار الوطن العربى والعالم الإسلامى صلات قوية مع المؤسسة العلمية العالمية . ولا نعرف حالات من علماء عرب أو مسلمين مبرزين استوطنوا الغرب ثم عادوا للمنطقة أو أقاموا صلات وثيقة مع مؤسسات عربية على أساس تطوعى ، فالشائع أن يعودوا لفترات قصيرة أو للاعتزال ، عادة بتمويل خارجى ، أو كخبراء أجانب" (٩٣) .

٣- تقدير الأنظمة الحاكمة فى العالم الإسلامى لدور العلماء ومراكز البحوث العلمية وإعطائها أولوية تليق بها ، فما نهضت الدولة الإسلامية إلا بتقدير الخلفاء والأمراء لدور العلماء والإنفاق عليهم رغم أن مجهوداتهم كانت فردية فى اغلب الأحيان . كما تحتم الضرورة ربط المراكز البحثية والعلمية بمقدرات الدول الإسلامية حتى يبدو قدر العلم والعلماء وتعم الفائدة . ولكن ذلك يتم فى إطار تعاونى تكاملى للاستفادة بكافة المقومات فى كافة أرجاء وأقاليم العالم العربى والإسلامى ، أو فى إطار مؤسسى دولى أكاديمى أسوة بالدول الغربية ، ففى الوقت الذى نهضت فيه مجالات العلوم كافة فى الدولة الإسلامية على أساس فردى ، كانت أوروبا بأكملها بزعامة الكنيسة خلف حركة الكشوف الجغرافية .

هوامش البحث

١- صلاح الدين الشامى ، الفكر الجغرافى سيرة ومسيرة ، الإسكندرية ، منشأة المعارف ، ١٩٩٩ ، ص

. ٢٠٣

- ٢- يوسف أبو الحجاج ، مرجع سبق ذكره ، ص ١ .
- ٣- للاستزادة أنظر : ياقوت الحموى ، كتاب معجم البلدان ، القاهرة ، طبعة الساسى ، الجزء الأول ، ص ٢ وما يليها .
- ٤- شمس الدين ابو عبد الله المقدسى ، أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، بيروت ، مكتبة خياط ، ١٩٠٦ ، تحقيق / دخويه ، الطبعة الثانية ، ص ١-٢ .
- ٥- للاستزادة أنظر : ابن حوقل ، أبو القاسم محمد النصيبى ، صورة الأرض ، تحقيق / ج . هـ . كرامرز ، لايدن ، الجزء الأول ، ص ٣ .
- ٦- حسين مؤنس ، تاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، القاهرة ، مكتبة مدبولى ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٦ ، ص ٧-٨ .
- ٧- للاستزادة أنظر : احمد بن أبى يعقوب بن واضح الكاتب ، كتاب البلدان ، تحقيق / ميخائيل يانوس دي خويه ، ليدن ، ١٨٦٠ ، ص ٢-٣ .
- ٨- حسين مؤنس ، مرجع سبق ذكره ، ص ٨-١١ .
- ٩- (٩٢) سورة الأنبياء ١٠- (٥٢) سورة المؤمنون
- ١١- للاستزادة فى المعرفة الحج عند العرب قبل الإسلام ، أنظر : الزرقى ، أخبار مكة ، الجزء الأول ، ص ١٧٩ وما بعدها .
- ١٢- آل عمران : ٩٦ .
- ١٣- تفسير الطبرى : جامع البيان عن تأويل آى القرآن ، طبعة دار المعارف ، القاهرة ، الجزء السابع ، ص ١٩ - ٢٦ .
- ١٤- الحج (٢٧) .
- ١٥- احمد عمر الزيلعى ، مكة وعلاقتها الخارجية ٣٠١ - ٤٨٧ هـ ، الرياض ، عمارة شئون المكتبات - جامعة الرياض ، ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م ، ص ٨١ .
- ١٦- محمد سالم إبراهيم مقلد ، الوطن العربى دراسة فى الواقع والمشكلات ، القاهرة ، دار الفكر العربى ، ٢٠٠٢ ، ص ٨٤ .
- ١٧- قريش الآيات (١ : ٣) .
- ١٨- تفسير القرطبى ، الجامع لأحكام القرآن ، الجزء ١٩ - ٢٠ ، الآية .
- ١٩- حاطوم ، يقظة القومية العربية ، القاهرة ، ١٩٦٨ ، ص ٨ .
- ٢٠- Geyd . W . Histoive Du Commerce Lavent Au Moyen Age . Leipzig , ١٩٢٥ , I . pp . ٢٤ - ٢٦ .
- ٢١- احمد عمر الزيلعى / مرجع سبق ذكره ، ص ١٥٦ .
- ٢٢- محمد محمود محمددين ، التراث الجغرافى الإسلامى ، الرياض ، دال العلوم ، ١٩٩٣ ، ص ٢٢٨ .

- ٢٣- صلاح الدين الشامى ، الرحلة عين الجغرافيا المبصرة ، فى الدراسة الميدانية ، الإسكندرية ، منشأة المعارف ، ١٩٨٢ ، ص ٩١ .
- ٢٤- محمد الخضر حسين ، الرحلات (جمعه وحققه / على الرضا التونسى) ، بيروت ، المطبعة التعاونية ، ١٩٦٧ ، ص ٨ .
- ٢٥- (١٥) سورة الملك
- ٢٦- (٤١) سورة يس
- ٢٧- (٧٠) سورة الإسراء
- ٢٨- (٢٠) سورة العنكبوت
- ٢٩- (١٣٧) سورة آل عمران
- ٣٠- (٩) سورة الروم
- ٣١- محمد السنوسى ، الرحلة الحجازية ، تحقيق / على الشنوفى ، الشرة التونسية للتوزيع ، ١٩٧٦ ، ص ٤٥ .
- ٣٢- على محسن مال الله ، أدب الرحلات عند العرب فى المشرق : نشأته وتطوره حتى نهاية القرن الثامن الهجرى ، بغداد ، مطبعة الإرشاد ، ١٩٧٨ ، ص ١٢ .
- ٣٣- محمد محمود محمدين ، التراث الجغرافى الإسلامى ، دار الطباعة للعلوم والنشر ، ١٩٨٤ ، ص ١٥-١٧ .
- ٣٤- محمد زكى مبارك ، ذكريات باريس ، القاهرة ، المطبعة الرحمانية ، ١٩٣١ ، ص ٦-٧ .
- ٣٥- شمس الدين أبو عبد الله المقدسى ، أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، بيروت ، مكتبة خياط ، ١٩٠٦ ، المقدمة والجزء الأول .
- ٣٦- محمد محمود الصياد ، رحلة ابن بطوطة ، مجلة تراث الإنسانية ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والطباعة والنشر ، المجلد الثالث ، مقال ابن بطوطة .
- ٣٧- صلاح الدين الشامى ، الرحلة العربية فى المحيط الهندى ودورها فى خدمة المعرفة الجغرافية ، الكويت ، مجلة عالم الفكر ، المجلد الثالث عشر ، العدد الرابع ، ١٩٨٣ ، ص ١٠٠-١٠٦ .
- ٣٨- حسين محمد فهيم ، مرجع سبق ذكره ، ص ٩٠ .
- ٣٩- صلاح الدين الشامى ، الإسلام والفكر الجغرافى ، مرجع سبق ذكره ، ص ٩٥ .
- ٤٠- ابن بطوطة (أبو عبد الله) : رحلة ابن بطوطة ، تقديم / كرم البستانى ، دار بيروت للطباعة والنشر ، ١٩٦٠ .
- ٤١- حسين كمال الدين ، إسقاط الكرة أرضية بالنسبة لمكة المكرمة ، مجلة البحوث الإسلامية ، العدد الثانى ، المجلد الأول ، الرياض ، ١٣٩٥ / ١٣٩٦ هـ - ١٩٧٥/١٩٧٦ م ، صفحات مختلفة .
- ٤٢- نفس المرجع السابق ، والصفحات .

- ٤٣- أبو شامة ، الروضتين فى أخبار الدولتين ، القاهرة ، ١٢٨٧هـ ، الجزء الثانى ، ص ٣٥ ، ٣٧ .
- ٤٤- عطية القوصى ، تجارة مصر فى البحر الأحمر حتى سقوط الدولة العباسية ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، آداب القاهرة ، رقم ١١٤٩ ، ص ١٢ .
- ٤٥- على بن حسين السليمان ، النشاط التجارى فى الجزيرة العربية فى العصور الوسطى ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، جامعة القاهرة ، رقم ١٣٣٥ ، ص ٩٧ .
- ٤٦- عطية القوصى ، مرجع سبق ذكره ، ص ١١٤ .
- ٤٧- احمد عمر الزيلعى ، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٨١ .
- ٢١٤ . I. Amed , soc . ١٥٠ , P ١٩٥٥ , newyork , Jewsand Arabs , Goitein - ٤٨
- ٤٩- عطية القوصى ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣٧ .
- ٥٠- إبراهيم شوكة ، ديار العرب من أنس المهج بلاديسى ، مجلة المجمع العراقى ، المجلد الحادى والعشرين ، ١٩٧١م ، ص ٦٠ .
- ٥١- باشر البراوى ، الرحلة الحجازية ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٩٥٩ ، ص ٢٨٩ .
- ٥٢- احمد عمر الزيلعى ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٨٦ .
- ٥٣- جلال الدين السيوطى ، حسن المحاضرة ، القاهرة ، ١٢٩٩هـ ، الجزء الثانى ، ص ٢١٩ .
- ٥٤- اليعقوبى ، كتاب البلدان ، لندن ١٣٠٢هـ ، ص ٣٠٨ .
- ٥٥- إبراهيم بن إسحاق الحربى ، كتاب المناسك وأماكن طرق الحج ، تحقيق / حمد الجاسر ، منشورات دار اليمامة ، ١٩٦٩م ، ص ٢٨٤ .
- ٥٦- موزل لويس ، طريق الحج العراقى القديم ، مجلة العرب ، السنة السابعة ، رمضان ، ١٣٩٢هـ ، الجزء الثالث ، ص ٢٠٣ .
- ٥٧- اليعقوبى ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣١١ .
- ٥٨- عبد القادر بن محمد الجزيرى ، درر الفوائد المنظمة فى أخبار الحجاج وطرق مكة المعظمة ، المطبعة السلفية بالقاهرة ، ص ٤٦٧ .
- ٥٩- عبد الرحمن بن على بن محمد ابن الجوزى ، المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم ، الجزء السابع ، ص ٥٧ .
- ٦٠- نفس المرجع السابق ، ص ٢٥٧ .
- ٦١- نفس المرجع السابق ، الجزء التاسع ، ص ٩٧ .
- ٦٢- اليعقوبى ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣١٢ .
- ٦٣- أبو الحسن على بن أبى الكرم بن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، الجزء الثامن ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٩٦٧م ، ص ١٦٤ .
- ٦٤- على باشا مبارك ، الخطط التوفيقين ، الجزء التاسع ، ص ١٦ .

- ٦٥- رحلة ناصر خسرو ، فى أماكن متعددة ، نقلًا عن : احمد على الزيلعى ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٠١ ، ١٠٢ .
- ٦٦- للاستزادة فى ذلك أنظر : إبراهيم مصطفى وآخرون ، تجارب الأمم ، مصر ، ١٩١٤م ، الجزء الثانى ، ص ٢١٥ .
- ٦٧- المقرئى ، اتعاط الحنفا بأخبار الأمة الفاطميين الخلفا ، القاهرة ، ١٩٦٧ ، الجزء الأول ، ص ١٨٦ .
- ٦٨- على باشا بارك ، الخطط التوفيقية ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، ١٨٩٣ ، الجزء السادس ، ص ٣٠٠ .
- ٦٩- العمرى ، ابن فضل الله ، مسالك الأبصار ، قسم اليمن ، تحقيق / أيمن فؤاد السيد ، طبع القاهرة ، ص ٤٤ .
- ٧٠- محمد بن احمد العقيلى ، قبيلة بن شعبة ، مجلة العرب ، جماديان سنة ١٣٩٤هـ ، ح ١١ ، ١٢ ، ص ٨٩٢ .
- ٧١- احمد عمر الزيلعى ، مرجع سبق ذكره ، ص ١١٧ .
- ٧٢- العمرى ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣٠٩ - ٣١٢ .
- ٧٣- أبو الحسن محمد بن جبير الكنانى البنىسى ، ويعد من أبرز الرحالة المسلمين العرب الذين سجلوا أخبار رحلاتهم بدقة ، وقد اشتهر بتفوقه فى كتابة النثر والشعر ، وكان موطنه الأندلس .
- ٧٤- عبد القدوس الأنصارى ، الجزيرة العبية فى رحلتى ابن جبير والعبدى ، دراسات تاريخ الجزيرة العربية ، الكتاب الأول ، جامعة الرياض ، ١٣٧٩هـ / ١٩٧٩م ، ص ٣٢٧ .
- ٧٥- انظر ، ابن جبير ، أبو الحسن محمد بن جبير ، رحلة ابن جبير ، بيروت ، دار صادر للطباعة والنشر ، ١٩٦٤ ، ص ٩٧ وما بعدها .
- ٧٦- رحلة ابن جبير ، ص ١٦٠ .
- ٧٧- رحلة ابن جبير ، ص ٨٥ - ٨٦ .
- ٧٨- رحلة ابن جبير ، ص ٩٢ .
- ٧٩- رحلة ابن جبير ، ص ٩٨ وما بعدها .
- ٨٠- عبد القدوس الأنصارى ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣٢٩ .
- ٨١- رحلة ابن جبير ، ص ١٢٣ وما بعدها .
- ٨٢- عبد القدوس الأنصارى ، مرجع سبق ذكره ، ص ٣٢٩ .
- ٨٣- أبو داود ، السنن ، الجزء الثالث ، ص ٣٤٩ .
- ٨٤- احمد عمر الزيلعى ، مرجع سبق ذكره ، ص ١٦٧ ، ١٦٨ .
- ٨٥- رحلة ابن جبير ، مرجع سبق ذكره ، ص ٩٧ : ١٠٠ .
- ٨٦- (٩٢) سورة الأنبياء

Bhagwati , J . And Parington , M . : Taxing the Brain Drain , ٢ Vols , -٨٧
Amsterdam : North Holland Pub . co . , : New York : American Elsevier
Publishing , ١٩٧٦ , P. ٣ .

٨٨- أنطوان زحلان ، مشكلة هجرة الكفاءات ، ندوة هجرة الكفاءات العربية ، لجنة الأمم المتحدة الاقتصادية
لغربي آسيا ، بيروت ، ٤-٨ فبراير ١٩٨٥ ، ص ٢٣ .

٨٩- أنطوان زحلان ، العرب وتحديات العلم والثقافة تقدم من دون تغيير ، مركز دراسات الوحدة العربية ،
بيروت ، مارس ١٩٩٩ ، ص ١٨٤ .

٩٠- Stahl , C . W , International Labour Migration And International
development International Migration for Employment Working Paper , Mig ,
Wp (Geneva : International Labour office) , P . ٥٠ .

٩١- نادر فرجاني ، هجرة الكفاءات من الوطن العربي في منظور استراتيجية لتطوير التعليم العالي ، مركز
المشكاة للبحث ، مصر ، يوليو ٢٠٠٠ ، ص ٣ .

٩٢- مجلة الايكونوميك ، ٦ يونيو ، ١٩٩٨ .

٩٣- محمد سالم مقلد ، الوطن العربي دراسة في الواقع والمشكلات ، القاهرة ، دار الفكر العربي ، ٢٠٠٢ ،
ص ٤٠٢-٤٠٣ .